

أزواج ما قبل

في

الحريم

إعداد
إسماعيل ناصيف



لِزَوْجِ مَا قِيلَ
فِي
الْمَدْرِيسِ

الرُّوحُ مَا قِيلَ
فِي
الْحَرْبِ

إبيد ناصيف

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل
الطبعة الأولى
١٤١٣م - ١٩٩٢م

مقدمة

« وما الشعر إلا من الشعور، بل هو الشعور ذاته
تفيض به النفس، فيتحد بنغم يوقعه الشاعر على
أوتار قلبه، ويحمله على أجنحة مخيلته، فيولد ما
يدعونه القصيدة ».

فؤاد أفرام البستاني

تضم هذه السلسلة أروع ما قيل في الأدب العربي، وخاصة الشعر منه، في
الغزل، والمدح، والهجاء، والرثاء، وغير ذلك من أغراض الشعر الغنائي المختلفة.

وقد حاولت في اختياري القصائد والمقطوعات الشعرية التي أثبتتها في هذه
السلسلة أن أتوع في الموضوعات، والعصور، والأدباء، والأفكار، والصنوع
الشعرية، فيأتي كل كتاب من هذه السلسلة بستاناً نظيراً بما يحوي من ثمار شهية
متنوعة، وأزاهير فواحة مختلفة الألوان.

واعتمدت في الاختيار على ذاتي الأدبية، وعلى ملاحظات بعض الأصدقاء
الأدباء واختياراتهم. فإن كان ما تتضمنه هذه السلسلة لا يمثل أحلى الكلام، فهو،
على الأقل، من أحلى الكلام، أو أحلى ما استطعت الوصول إليه. وبديهي القول
إن الإحاطة بما صدر عن الأدباء العرب من حلو الكلام على اتساع رقعة انتشار
اللغة العربية، وفي امتداد تاريخي يقارب الألف وخمسمئة سنة تقريباً، أمر
يستحيل على جمهرة من الأدباء يسلخون قسماً من أعمارهم في جمع أشعار العرب
ونشرهم، ثم يختارون أفضله وأحلاه. ولذلك نرى أن كل من كتب كتاباً لكتب
هذه السلسلة، أو جمع مختارات من أشعار العرب كما فعل أبو تمام في كتابه
« ديوان الحماسة »، والعماد الدكتور مصطفى طلاس في كتابه « شاعر وقصيدة »

قد أثبتَ أفضل ما تحصّل لديه دون أن تكون محصلته الأدبية، هي بالضرورة، الأفضّل والأروع.

وليس لي في هذه السلسلة سوى فضل «الجمع» و«الاختيار»، و«التنسيق». أمّا «الجمع» فقد اقتضى أن أعيش مدّة من الزمن بين التصانيف الكثيرة، حتّى إذا وقعتُ على قصيدة جميلة، أو مقطوعة شعرية حلوة، أو فكرة عميقة صيغتُ بأسلوب فنّي مُمتنع، رأيتني أضمرها إلى أخواتها، ثم اخترتُ ما ظننتُ أنه أفضله، وليس أصعب من أن تختار بعض أزاهير البساتين لتقدّمها على أنها تمثّل البساتين تمثيلاً دقيقاً.

وتضم هذه السلسلة الكتب التالية:

- ١ - أروع ما قيل في الحبّ والغزل.
- ٢ - أروع ما قيل في الرثاء.
- ٣ - أروع ما قيل في الهجاء.
- ٤ - أروع ما قيل في المدح.
- ٥ - أروع ما قيل في الحكمة.
- ٦ - أروع ما قيل في الزهد.
- ٧ - أروع ما قيل في الوطنيات.
- ٨ - أروع ما قيل في الخمر واللهو والمجون.
- ٩ - أروع ما قيل في الفخر والحماسة.
- ١٠ - أروع ما قيل في الوصف.
- ١١ - أروع ما قيل من الموشحات.

وبعد، أرجو، أيها القارئ العزيز، أن تعجبك هذه السلسلة بما اخترته لك فيها من أروع ما قيل في أدبنا العربيّ.

والله وليّ التوفيق
المؤلف

القسم الأول :

المديح وتطوره في الأدب العربيّ

الفصل الأول :

المديح وعوامل نشأته

١ - التعريف بالمديح:

هو فنّ من فنون الشعر الغنائيّ يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبّر عن شعور - تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة - ملّك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. وفي هذا الفنّ من الشعر تعداد للمزايا الجميلة، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكتّنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرفوا بمثل هاتيك الصفات والشمائل.

والمديح من أقدم الفنون الأدبيّة، عرفته الشعوب البدائية يوم رفعت إلى الآلهة صلواتها وقدمت القرابين إلى أصنامها ووضعت نفسها تحت وصاية زعمائها وأبطالها. فمئذ فجر التاريخ أحسن الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع، لذلك سعى إلى إرضاء من هم فوقه، وتجمّل حيالهم بالقول، فوقف منهم موقف الاحترام والتودّد. وسواء أكان هذا المديح صادرًا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه فهو يعترف بالأفضليّة لمن يتصوّر أنهم سبقوه بالغنى أو الشجاعة والقوة أو الفهم والذكاء.

ونظرة المادح إلى الممدوح تشترك مع الناس جميعًا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والغني والأمير نظرة خاصة فيها الكثير من الإجلال والإكرام؛

يعبر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوافر لديه من ضروب القول والحديث والبيان شعراً ونشراً.

ولسنا ندري كيف جاءت المدائح الأولى عند الإنسان الأوّل، ولكنّ النقوش القديمة تحمل على صفحاتها الحمد والثناء لأشخاص وجماعات وتشيد بالقوادر أو الملوك وتتحدّث عن انتصاراتهم ومواهبهم، وتمنحهم ألقاباً ونعوتاً وصفات تسمّى، في عرفنا اليوم، مدائح. فقد نشأ الإنسان على خوف من القوة والبطش فلذلك رأيناه يمجّد البحر والرعد والأسد والمطر والشمس والقمر والنار ويتوجّه إليها خاضعاً خاشعاً مبدئياً إعجابه. وسرعان ما اكتشف فكرة الإله، فجعل لكلّ شيء إلهاً، في بادئ الأمر، ثمّ توجّه إلى الآلهة بصلواته وعبادته وتضرّعاته فعدت هذه كلّها مدائح، إلى أن اكتشف فكرة الإله الواحد فأصبحت مدائحه صلاة.

وهذا النوع من المديح عرفناه عند المصريين القدامى مكتوباً على ورق البردى يتوجّه فيه الفلاح المصريّ إلى سيّده الفرعون، كما عرفناه عند أهل الصين القدامى في كتبهم الدينية وملاحمهم مثل كتاب كونفوشيوس أو «الماها بهارتا» أو «راميانا». وعرفنا هذا المديح أيضاً عند الفرس في كتابات زرادشت كما عرفناه في التوراة والتلمود ولا سيما في مزامير داود. وقد استمرّ هذا المديح عند اليونان، نراه جليّاً في الإلياذة والأوديسة وفيه تمجيد للقوة والشجاعة والبطولة، وإشادة بالخير والعدل والحقّ. ولما جاء القرن الخامس عشر قام الانكليز والفرنسيون على لسان شعراء «التروبادور» منهم، يمجّدون البسالة والشجاعة وكرم الأخلاق، ولم يتخلّف عنهم الألمان والأسبان في مدح الزعماء والقوادر والملوك.

٢ - المديح في الأدب العربيّ:

ذكرنا أنّ الأمم جميعاً كانوا يكرّمون عظماءهم في أمور الدين والدنيا على السواء، وسنحاول في تلك الفقرة أن ننظر كيف كان العرب يرسمون إعجابهم

وتقديرهم حينما كانوا يتوجهون إلى مادحيهم.

يعتبر المديح أبرز الفنون الشعرية عند العرب على الاطلاق، رافق الشعر منذ نشأته الأولى كما يرافق الوتر العود. فعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية ومن التبديل الذي أصاب الشعر من حيث المفاهيم والمقاييس، فإن المديح لم يغيب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر. بل ظلّ هو الأصل وسائر الفنون الشعرية هي الفرع. يتناوله الشعراء ويصرفون إليه كلّ عناية واهتمام كأنه استقرّ في أذهانهم أنّ الشاعر خلق ليكون مديحاً، فإذا نظم شعراً في غير المدح كان كالرامي الذي يرمي سهاماً طائشة بعيدة عن إطار هدفها. من هنا كان حلم كلّ شاعر أن يسخر عبقريته في هذا الاتجاه فيجعل شعره باباً للرزق ومفتاحاً للثروة، حتى طبع الأدب العربي بطابع المديح وبات من الصعب أن نجد شاعراً عربياً من العباقرة لم يصطنع المديح، لدرجة أن امتلأت الدواوين بهذا اللون وغدت قصائدها تشكل القسم الغالب في نتاج الشعراء.

٣ - عوامل نشأة شعر المديح:

نشأ فن المديح عند العرب، لا بدافع الكسب والتزلف أول الأمر، بل إعجاباً بالفضيلة وثناء على صاحبها، واهتزازاً أمام النبيل والأريحية، وإكباراً للمروءة والشجاعة. وقد كان لطبيعة الحياة الجاهلية ونظم المعيشة آنذاك أبلغ الأثر في شيوع هذا الفن وانتشاره، والإنسان مفطور على حب الإطراء مهما يكن قسطه من الفهم والعظمة، ومفطور أيضاً على المجاملة تقرّباً من الناس واكتساباً لوذمهم.

والبدوي خاصة، ذاتي في تصرفاته ومشاعره، شديد اليقظة والالتفات إلى ما يمسّ فرديته، مرهف الحساسية، سريع التأثر. فكان بسبب ذلك معتدّاً بنفسه، غيوراً على شرفه وعرضه، وعلى ضيفه وعلى من يستجير به، حريصاً على الظهور أمام الناس بمظهر الرجل المحترم، والبطل الشجاع، والكريم الأبي، يُمتدح بين القوم، ويشنى على خصاله وفعاله.

وكان من أثر النظام القبليّ آنذاك أن أخذ الشعراء يمتدحون شيوخ القبائل والأبطال فينسبون إليهم فضائل ذلك العصر من تسامح وحلم وحكمة وكرم ومروءة وإباء وأنفة وعدل وشجاعة وما إلى ذلك. ومما زادهم إقبالاً على مديح الزعماء، ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر، فكلّ قبيلة تجرّد شاعرها للذود عنها وامتداح قوادها وأبطالها والتغني بمآثرهم.

ومن عوامل انتشار المديح في العصور الأدبيّة الأولى، وفي مجتمعات الصحراء، تلك المقديسات التي كانوا يلتزمون بها من ضيافة ونجدة وحسن جوار وثأر والتي كان يلتزم بها كلّ عربيّ ويؤدي فروضها كاملة مهما يكن شأنه. وكان قضاء هذه الموجبات يترجم في معظم الأحيان مديحاً للغير أو فخراً بالذات. ونتيجة لذلك كان المديح في أوّل عهده مدرسة أخلاق تعمل على بلورة المثل العليا وترسيخها، وحضّ الناس على تشجيعها واحتمال كلّ ما تتطلبه من حزم وصبر وشدة، وهم عندما يتوجهون إلى ممدوح تتوافر فيه هذه الفضائل إنّما يجعلونه مثلاً يحتذى ورجلاً كاملاً تتجسّد في شخصه هذه المثل والفضائل وتتلو.

الفصل الثاني

تطور المديح في الأدب العربيّ خلال العصور

١ - في الجاهليّة:

بدأ المديح في الجاهلية شعراً يقال في مناسبات لا يستطيع المال أن يفياها حقها. فكان إقراراً بفضل أو إمعاناً في شكر أو تقديراً لموقف، وكان الشاعر يجد نفسه منساقاً إلى التعبير عن مشاعره دون أن يبتغي جزاء أو معروفاً وكأنه شاهد حق، وكان الناس يأخذون شعره دليلاً يتناقلونه للتأكيد على قرب الممدوح من الفضيلة أو ابتعاد المهجوة عنها. وكان الشعر الجيد من هذا المديح يتحوّل إلى أمثال سائرة يتناقلها الناس جيلاً عن جيل. فقد قال امرؤ القيس بيتاً يمدح فيه بني تيم قوم المعلى الذي أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء:

أقرّ حشا امرئ القيس بن حُجْرٍ بنسو تيسم مصابيحُ الظلامِ

فقيل لبني تيم « مصابيح الظلام » مند ذلك اليوم.

وخير دليل على ابتعاد ذلك الشعر عن المادّة ديوان زهير بن أبي سلمى الذي يدور أكثره على مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف وغيرهما لوقفهما حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان ودفعهما ديات القتلى من الطرفين والتي بلغت ثلاثة آلاف بعير.

ولم يتحوّل الشعر إلى أداة للتكسّب إلا حين لّد لجماعة من الممدوحين أن

يقال فيهم ما يرضي كبرياءهم وغرورهم، ويستجيب لنزوات الأنانية لديهم، فعمدوا إلى الأموال والهدايا يصدقونها على الشعراء يستحثون قرائحهم لنظم الأشعار في التغني بأعمالهم. وكان نتيجة لذلك أن ذاق الشعراء حلاوة العطاء، فانشغلوا به عن كل شيء، وسهل عليهم أن ينظموا قصيدة من بضعة أبيات من الشعر ليتقاضوا لقاءها مبلغاً من المال يسدّ حاجتهم لفترة طويلة. وقد روى ابن رشيق عن النابغة الذبياني قائلاً: « كانت العرب لا تتكسّب بالشعر... حتى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، فسقطت منزلته، وتكسّب مألّاً جسيماً حتى كان أكله وشربه في صحاف من الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك ».

وإذا جاز لنا الشكّ بأنّ النابغة لم يكن أوّل المتكسّبين بشعرهم، لا يسعنا إلاّ الاعتراف بأنّه كبير شعراء التكسّب في العصر الجاهلي، فكان أوّل الذين مهّدوا سبيل التكسّب لمن جاء بعده من الشعراء. والذي لا يرقى إليه شكّ هو أنّ النابغة هو أوّل الشعراء الكبار الذين درّ عليهم شعرهم الثروة والنعيم. ومهما يكن من أمر التكسّب بالمديح في الشعر الجاهلي فإنّه ظلّ على شيء من عفة النفس، بعيداً عن صراحة السؤال، ولا سيما عند زهير وطرفة والحطيئة. وإذا كان الأعشى قد شدّ عن هذه القاعدة، إضافة إلى النابغة، فإنّ الغالب على الشعر الجاهلي يظلّ بعده عن التكسّب.

٢ - في صدر الإسلام:

ولمّا جاء الإسلام خفت الشعر بصورة عامّة، عدا شعر الكافرين الذين راحوا يناضلون الرسول، فاضطرّ النبيّ إلى الردّ عليهم بسلاحهم، فكان حسّان بن ثابت من الشعراء الذين تبعوه ووقفوا إلى جانبه مدافعين عنه وعن الدين الجديد. وقد رفض النبيّ أن يمدحه الشعراء إلاّ بما يتّصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه، من فضائل تصب في خدمة الدين ومصلحة الرسالة التي نذر نفسه لأدائها. فالمديح

مقبول، برأي النبي، ما دام صادقاً ويرمي إلى غاية سامية، وما دام لا ينبجم عنه إلا الخير. أما إذا تحول إلى نفاق، فأقل ما يستحقه المداح هو أن يحثى في وجهه التراب. وقد تدهورت منزلة المديح منذ بداية الاسلام نتيجة لتلك التطورات، وفي ذلك يقول صاحب العمدة: « كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب، لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر. فلما تكسبوا به، وجعلوه طعمة، وتولوا به الأعراض وتناولوها، صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا، حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلّة، إلا من وقر نفسه وقارها ».

وهكذا كان الشاعر المتكسب محتقراً عهد النبي والخلفاء الراشدين. فكان عمر بن الخطاب لا يكثرث للمديح وقد صرف همه إلى تركيز الوحدة القومية والخروج بها وبالدين إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية. وكان علي بن أبي طالب لا يرضى التزلف الذي يأتيه الشعراء في مدائحهم وهو القائل لأحدهم وقد أطال في الكلام وأثنى: « يا هذا أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ». وكان الخلفاء الراشدون يرون أن قيمة الشعر لا تقدر بمال، يدلّ على ذلك ما ذكر عن عمر بن الخطاب من أنه لقي ذات يوم ابنة الشاعر زهير بن أبي سلمى، فسألها: « ما فعلت بحلل هرم بن سنان التي كساها أباك؟ » فقالت: « لقد أبلاها الدهر ». قال: « ولكن ما كساه أبوك هرمًا لم يبله الدهر ». كما ذكر عنه أيضاً جوابه لأحد أولاد هرم وقد زعم أنهم كانوا يجزلون العطاء لزهير: « ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ».

٣ - في العهد الأموي:

ما إن انقضى عهد الخلفاء الراشدين حتى عادت الخصومات بين العرب إلى شبه ما كانت عليه في الجاهلية. فإذا هناك أحزاب تتصارع بالسيف وبالكمة. ولكل حزب شعراء ينطقون باسمه ويمدحون زعماءه ويروجون لسياسته، ويهجون

خصومه ويردون على شعرائهم. وقد تحوّل الشعر بفعل هذه الأحداث والصراعات من جديد إلى أداة للتكسب وخاصة على أيدي الخلفاء الأمويين الذين شجعوا هذا الاتجاه في الشعر وأغدقوا بسخاء على شعراء المديح الذين توافدوا إلى الشام من كلّ الأقطار المجاورة. فجمعوا حولهم أقطاب الشعر يبذلون لهم المال للدفاع عن سياستهم وإظهار حقهم الإلهي في الخلافة إثر موقعة صفين. فكان الشاعر بمثابة الصحيفة الناطقة باسم هذا الحزب أو ذاك. فتهافت الشعراء على الخلفاء طامعين بلقب شاعر الخليفة حتى إذا لم يبلغوا هذا المقام الرفيع قنعوا بما دونه منصرفين إلى الولاة والحكام والقواد أو إلى من هم دونهم مرتبة، يبتغون الثروة ويتوسلون الشفاعة لديهم للوصول إلى باب الخليفة. فهذا هو الأخطل يتوّج شاعر البلاط الأموي حين يقول:

ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمّدهم - إذ دعوا من ربهم - مددٌ
وها هو جرير يمدح الحجاج أولاً توسلاً لبلوغ الخلفاء عبد الملك وسليمان
وبزيد وهشام... لكنّه يقصّر عن مزاحمة الأخطل في احتلال المركز الأول في
بلاط عبد الملك.

وكلّ هذه الظواهر أدت إلى نتائج سيئة في حياة الأدب العربي، فجعلت الشعر أسير المال مقيداً بقيود المادّة لم يستطع أن يتخلّص من هذا الارتهان طوال أزمنة طويلة. ونشأ من ذلك أن الشعراء راحوا يتزاحمون في التسكّع على أبواب أولياء الأمر، يردّدون المعاني المكرّرة في المديح فيقعون في الكذب والمبالغة، كلّ ذلك على حساب الذوق الأدبي وعزّة وكرامة الشاعر والمستمع على السواء. ولم نجد في عهد بني أمية شاعراً لم يلتحق بهذا الركب سوى شعراء الغزل أمثال عمر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر وغيرهم.

٤ - قبي العهد العباسي:

مع بداية العصر العباسي كان شعر المديح قد تبوّأ المكان الأرحب في الشعر

العربي، وأصبحت سائر الأبواب تبدو إلى جانبه صغيرة إذا لم نقل إنها أصبحت في خدمته. فقد تفرقت الدولة الإسلامية شيئاً، وتقسّم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فازدادت موارد الرزق عند شعراء المديح وأصبح همّ كلّ شاعر أن يسافر إلى أمير يكفيه، أو قائد يحميه. فرأينا أسماء بعض الشعراء تقترن بأسماء بعض الخلفاء والأمراء، من ذلك: المتنبي وسيف الدولة، أبو تمام والمعتصم، البحري والمتوكل... على أن التكبّس بلغ أشده في ذلك العصر، وبلغ في افتضاح أمره وابتذال سوقه أن الجاحظ حدّر الناس من الوقوع في حبال المتكسّبين، فقال: « ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين إنّما تعلّموا المنطق لصناعة التكبّس؟! ». وكانت قصائد المديح متشابهة تبدأ بالنسيب المتكلّف ثم تذكر الطريق التي سلكها الشاعر لبلوغ الممدوح والمشقات التي تكبّدها، والصعاب التي اعترضته، والخيال أو التوق التي أقلته حتى يصل إلى الممدوح حيث الجود والكرم والشجاعة والنجدة والبلاغة والبيان.

وبالنتيجة ظلّ المديح أخذاً بمقدمة الشعر العربي حتى ضيّع عليه الكثير من المعاني الإنسانية وصرفه عن مواطن فنيّة كان قادراً على اكتشافها والإبداع فيها وأبعده عن عالم الوجدان وحرّم عليه سلوك طريق الملحمة أو المسرحية أو غيرها من الفنون الأدبيّة التي اشتهرت بها آداب الشعوب الأخرى.

٥ - بعد العهد العباسي:

انتقل المديح إلى الأندلس بانتقال العرب إليها وراح الشعراء يقلّدون أساليب المشاركة. وقد ساعد على ازدهار شعر المديح ما حصل من تفرّق الدويلات في عهد ملوك الطوائف وتنافس الأمراء على احتضان أرباب الشعر والكلمة. أمّا في عصر الانحطاط فقد ألحّ الشعراء على القديم وعادوا يكرّرونه دون تبديل في صورته ومعانيه حتى سقط الشعر على أيديهم كما سقط العالم السياسي للمسلمين في ظلمات داجية.

ولما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ في مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً آخر إلى قصور القاهرة، أو يترددون حول الوجهاء والزعماء أو يطرقون أبواباً جديدة في امتداح البلدان والأوطان.

وهوذا أمير الشعراء أحمد شوقي يهتز متباهياً حين يصبح شاعر قصر الخديوي في مصر ويقول باعتزاز:

شاعرُ العزيزِ وما بالقليلِ ذا اللّٰقِيبُ

ولكن الأدب الحديث يمجّ شعر المديح إجمالاً لما اقترن به خلال العصور من ألوان التكسب والتدلل.

القسم الثاني

أنواع المديح بحسب الممدوحين

تختلف أنواع المديح باختلاف الممدوحين، ونستطيع أن نميّز بين هذه الأنواع، أو «الألوان» كما يحلو للبعض أن يسمّيها، ما يلي:

- ١ - المديح الدينيّ.
- ٢ - مديح الملوك والخلفاء.
- ٣ - مديح الأمراء والوزراء والوجهاء.
- ٤ - مديح العلماء والأدباء.
- ٥ - مديح الأوطان والبلدان.

وسنخصّص لكل نوع من هذه الأنواع فصلاً مستقلاً في هذا القسم من كتابنا هذا.

الفصل الرابع

المديح الديني

١ - مدح الله عزّ جلاله :

لقد أكثرت الكتب الدينية من ذكر الله وبيان معجزاته في خلقه، والاعتراف بفضله على المخلوقات جميعاً. لذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فأوا في الطبيعة سرّ جماله وفي جمال الدنيا سرّ عظمته.

فقد قال حسان بن ثابت :

تعاليت ربّ الناسِ عن قولٍ من دعا سواك إلهًا أنتَ أعلى وأمجّدُ

ثم رأينا أبا العتاهية يرى عظمة الخالق في كلّ شيء فيقول :

وإنك معروف ولست بموصوفٍ وإنك موجود ولست بمحسودٍ

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني حتى تطوّر هذا المديح فأصبح أقرب إلى النسيب مع شعراء المتصوّفة الذين أدخلوا الفلسفة والعقل في شعرهم. ولكنّ هذا الشعر لم يتطوّر كما تطوّر في مديح النبيّ محمد خاتم الأنبياء (ﷺ)، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله، وبيان أياديه على الإسلام والمسلمين، والإشادة بمحامده.

٢ - المديح النبوي:

كان العرب يعيشون قبل الإسلام في أطراف الأرض على نظام غريب وأسلوب عجيب عشائر وقبائل تتصادم وتتناحر. فلما ظهر النبي محمد (ﷺ) دعا إلى وحدة العرب واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفد قواهم. فهزت تلك الدعوة الممالك المجاورة فوقفت بين مصدقة ومكذبة ووقف الشعراء منها موقف الدفاع أو الهجوم. أما المدافعون عن النبي ورسالته فقد امتدحوا خصال النبي وشماله وكان مديحهم أشبه بمديح الأجراد والكرماء من رؤساء القبائل، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق. أما كعب بن زهير فقد مدح النبي بقصيدة سارت على الزمان وقلدها الشعراء على مرّ العصور، يعتذر فيها من النبي ويطلب عفوه لما بدر منه حيث قال فيها:

إنّ الرسول لنورٍ يُستضاء به مهتدٌ من سيف الله مسلولٌ

وبلغ بذلك منتهى المديح العربي القديم، إذ جمع الكرم والعمو والتسامح والشجاعة والوقار والسيادة والقداسة في شخص النبي. ثم انبرى حسّان بن ثابت شاعر الرسول يدافع عن النبي وعن دعوته الجديدة، فإذا رسالته هدى للناس وإذا النبي هو الكمال المجسم والخلق المصفى:

خلقت مبراً من كلّ عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاء

وظلّ الشعراء في كلّ عصر يفعلون كما فعل حسّان بن ثابت، حتى جاء القرن السابع للهجرة، فوضع محمد بن سعيد البوصيري قصيدته الهزمية الشهيرة التي زادت على أربعمئة بيت بسط فيها حياة النبي ومزاياه ومعجزاته، ورسم مولده في ليلة غراء وضعته فيها أمه آمنة بنت وهب. ثم ينتقل إلى وصفه كرجل في قصيدة أخرى يقول فيها:

كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ والبحر في كرمٍ والدهر في هممٍ

وهذه القصيدة الميمية سميت « البردة » فحفظتها الأجيال الإسلامية، وتولتها المطابع، وشرحها الشارحون، وعارضها الشعراء على مدى العصور.

ولم يخلُ القرن الماضي والقرن الحالي من شعراء امتدحوا النبيّ نذكر منهم محمود سامي البارودي وأحمد شوقي في « الهزمية النبوية »، وفي القصيدة الميمية « نهج البردة »، والبائية التي مطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
حيث يقول فيها:

وكسان بيسانه للهذي سُبلا وكانت خيلُهُ للحقّ غابا
وعلمنا بناء المسجدِ حتّى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيلُ المطالبِ بالسبِّ بالتمنّي ولكنْ تُؤخَذُ الدنيا غلابا

ولن توفي حقّ هؤلاء الشعراء في مديح النبيّ، لأنّ ذلك يطول، بل نؤكد أنّ الشعراء اتجهوا إلى نبيّهم كلّما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث.

٣ - مديح آل البيت:

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول ونبوته، فقد امتدحوا آله وأهل بيته، يدفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة. وقد الحقوا على تصوير الفواجع التي ألمت بأهل البيت كمقتل الحسن والحسين وإحياء تلك الذكرى في المآتم. فجرى شعرهم في الدواوين كما جرت الدماء في تلك الفواجع وما زال حتّى اليوم كأننا في الأيام الأولى من الإسلام. فإذا بالأحفاد يحملون فكرة الانتقام من أبناء لا يملكون إلا الأسف لما وقع بين أجدادهم في القديم.

فها هو الكميت في هاشمياته يمدح أهل البيت ويتناول الأمويين بالهجاء ويرى أنهم لا يصلحون لخلافة المسلمين.

بأي كتاب أم بأية مئة ترى حبه عاراً عليّ وتحسب
فما لي إلا آل أحمد شيعة وما لي إلا مشعب الحق مشعب

والفرزدق على تقربه من الأمويين مدح زين العابدين بن الحسين بن علي في
حضرة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فجعل حبه من الإيمان وبغضهم من
الكفر، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض:

من معشر حبه دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

ولما كان القرن الرابع الهجري، استولى الحمدانيون على الجزيرة وحلب،
وجعلوا من هذه الربوع منابر لمدح آل البيت والمطالبة بالتأر لهم، وحشدوا شعراءهم
لمدح الشيعة والتفجع على ما حل بهم من أمثال السري الرقاء والأواء الدمشقي
والصنوبري وأبي فراس الحمداني الذي قال:

شافعي أحمد النبي ومولا ي عليّ والبنت والسبطان^(١)
والإمام المهدي في يوم لا ينسق إلا غفران ذي الغفران

وقد تحوّل شعر هؤلاء الشعراء إلى شعر سياسي في لغة عصرنا يهاجم العباسيين
وينتصر لآل البيت وخاضة عند الصنوبري الذي يُعتبر من أطول شعراء بني حمدان
نفساً في مدح آل البيت.

(١) البنت: فاطمة بنت الرسول (ﷺ)، والسبطان: الإمامان الحسن والحسين رضي الله عنهما.

أما الشريف الرضيّ فإنه على طريقة الصنوبري وأبي فراس يتوجع للفواجع التي
حلّت بالشّعبة ويهدّد بالثأر والانتقام ويندّد بالقاتلين في قصائد باكية، حزينة،
تشبه الرثاء والتفجّع، أعادت إلى الأذهان سيرة الجاهليّة في العصبية والقبلية.

وقد اقتفى مهيار الديلمي آثار من سبقه من زملائه الشعراء وغلب على شعره
البكاء والتفجّع، وجعل القضية دينية صرفة. وقد تجمع من هذه القصائد في آل
البيت كتب عديدة عمل القدماء على جمعها وتبويبها فانتشرت في كثير من أصقاع
العرب.

حسان بن ثابت في مدح النبي (ﷺ)

هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (. . . - ٥٤ هـ / ٦٧٤ م)، الصحابي، شاعر النبي (ﷺ). قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة، كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي (ﷺ) في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام.

ومن مدائحه النبوية نثبت القصيدتين التاليتين :

(من ثاني الطويل مطلق مجرد موصول والقافية متدارك)

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ (١)
وَضَمَّ آلِإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِسْمِيهِ إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَدَّنُ أَشْهَدُ (٢)

(١) أغر: كريم الأفعال ووضحها على المثل، والأغر من الغرة بياض الوجه، وقوله: عليه للنبوة خاتم من الله، يجوز أن يكون المراد: عليه من إشراقه وتألؤه ومن جميع خصاله طابع النبوة يلوح ويشاهد، وأن يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته، وخاتم النبوة، نفتح التاء وكسرهما، قيل إنه شامة خضراء أو سوداء محتفرة في اللحم وقيل كغدة عند غضروف كتفه اليسرى. قيل: ولد عليه السلام به، قيل: بعد أن ولد، والذي يظهر أنه من اختصاصه ﷺ لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين.

(٢) قوله: «إذا قال في الخمس المؤذن أشهد» بيان لقوله: «وضم الإله اسم النبي لاسمه»، وذلك أن المؤذن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وَشَقَّ لَهٗ مِنْ اِسْمِهٖ لِیَجْلَّهٗ
 نَبِیُّ اَنَا بَعْدَ یَاسٍ وَفَتْسِرَةٍ
 فَاْمَسَى سِرَاجًا مُسْتَنِیرًا وَهَادِیًا
 وَاَنْذَرْنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً
 وَاَنْتَ اِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّی وَخَالِقِی
 تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنِ قَوْلِ مَنْ دَعَا
 لَكَ الْخَلْقُ وَالتَّعْمَاءُ وَالْاَمْرُ كُلُّهُ
 فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ (١)
 مِنَ الرَّسْلِ وَالْاَوْثَانُ فِي الْاَرْضِ تُعْبَدُ (٢)
 یَلُوحُ کَمَا لَاحَ الصَّقِیْلُ الْمُهَنْدُ (٣)
 وَعَلَّمْنَا الْاِسْلَامَ فَاللَّهِ نَحْمَدُ (٤)
 بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ فِي النَّاسِ اَشْهَدُ (٥)
 سِوَاكَ اِلَهًا اَنْتَ اَعْلَى وَاْمَجْدُ
 فِیْیَاكَ نَسْتَهْدِی وِیْیَاكَ نَعْبُدُ (٦)

★ ★ ★

وَاللّٰهُ رَبِّي لَا نَفَارِقُ مَا جِئِدَا عَفَا الْخَلِيقَةَ مَا جِدَا الْاَمْجَادِ (٧)

- (١) قوله: «فذو العرش محمود» بيان لقوله: «وشق له من اسمه»، وهذا البيت ليس من قول حسان، وإنما هو لأبي طالب ضمنه حسان شعره، واصل البيت: شق له دون واو على أن فيه حرماً، أي حذف حرف من أوله، وهو الواو.
- (٢) الفترة ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة وقوله: «والأوثان» الواو واو الحال، والأوثان جمع «وثن».
- (٣) الصقيل المهند: السيف المصقول.
- (٤) الإنذار: الاعلام والتحذير مما يخاف منه، والمنذر المخوف المحذر. وقوله: «وبشر جنة» تقول: بشره وأبشره، فبشر به فرح، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير.
- (٥) إله الخلق: يا إله الخلق، وقوله: بذلك متعلق بقول: «أشهد».
- (٦) فالخلق في كلام العرب ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه، ونعمة الله ونعمائه منه وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه من نعمه الظاهرة والباطنة.
- (٧) عفا الخليفة: فالعمفة الكف عما لا يحل وعن كل ما لا يجمل وسيدنا رسول الله عفيف بخلقته لا يتعمل لذلك.

مَتَكْرَمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَى بَذَلَ النَّصِيحَةَ رَافِعَ الْأَعْمَادِ (١)
 مِثْلَ الْهَلَالِ مَبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ سَمِعَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ (٢)
 إِنْ تَشْرُكُوهُ فَإِنَّ رَبِّي قَادِرٌ أَمْسَى يَعُودُ بِفَضْلِهِ الْعَوَادِ (٣)
 وَاللَّهِ رَبِّي لَا تُفَارِقُ أَمْرَةً مَا كَانَ عَيْشٌ يُسْرَتَجَسَى لِمَعَادِ
 لَا نُبْتَغِي رَبًّا سِوَاهُ نَاصِرًا حَتَّى نُؤَافِي ضَخْوَةَ الْمِيعَادِ

★ ★ ★

(١) بذل النصيحة: يجود بها عن طيبة خاطر وهو الناصح الأمين، ورافع الأعماد: يريد رافع عماد غيره إذ ينتصح بنصيحته ويتبع قوله، وهل ارتفع عماد أحد ارتفاع عماد أصحاب رسول الله، وغلان رفيع العماد يراد عماد بيت شرفه، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب.

(٢) طيب الأعواد: كريم النسب.

(٣) يعود بفضل العواد: عن العائدة، وهي ما عاد به عليك المفضل في صلة أو فضل.

كعب بن زهير في مدح النبي (ﷺ)

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازنيّ (٠٠٠ - ٢٦ هـ / ٦٤٥ م) شاعر عالي الطبقة من أهالي نجد . كان ميّناً اشتهر في الجاهليّة . ولما ظهر الإسلام ، هجا النبيّ (ﷺ) ، وأقام يشبّه بنساء المسلمين ، فهدر النبيّ دمه ، فجاءه كعب مستأثماً ، وقد أسلم ، وأنشده لاميتّه المشهورة ، فعفا عنه النبيّ (ﷺ) ، وخلع عليه برده . وقد كثر مُحَمِّسُو هذه اللامية ، ومشطّروها ، ومعارضوها ، وشرّاحها ، وترجمت إلى الإيطاليّة ، وفيما يلي مقتطفات منها :

بانت سعاد

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ متيمٌ إثرها ، لسم يفسد ، مكبولٌ^(١)
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أعنّ غضيض الطرف مكحولٌ^(٢) ...

(١) بانت : فارقت ، ابتعدت . المتبول : الذي أسقمه الحب واضعفه . المتيم : الذي استولى عليه الهوى وذلكه . المكبول : المقيّد .

(٢) البين : الفراق . الأغن : شفة اللظبي ، وهو الذي يخرج صوته من خياشيمه . غضيض الطرف : فائر الأجنان مسترخيها .

تَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَائِبَهَا، وَقَوْلُهُمْ
فَقُلْتُ: «خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ
كُلُّ آبِنِ أُنْتَى، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
هَا أَنْتَ، يَا آبِنَ سُلْمَى، لَمَقْتُولٌ^(١)
فَكُلُّ مَا قَدَرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ^(٢)
يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَدَبَاءَ مَحْمُولٌ^(٣)

★ ★ ★

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعِدِّي
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ، وَلَمْ
مَا زِلْتُ أَفْتَطِيعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنْزَعَهَا
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يُنْتَضَسَاءُ بِهِ
لِذَلِكَ أَهَيْبُ عِنْدِي، إِذْ أَكَلَّمْتُهُ
وَأَلْعَفُوْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَا مَأْمُولٌ^(٤)
الْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيْلٌ^(٥)
أَذِيْبٌ، وَتَوَّ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيْسِ...
جِنْحَ الظَّلَامِ، وَتَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولٌ^(٦)
فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقَيْلُ^(٧)
مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ مَسْئُولٌ^(٨)
وَقِيْلَ: إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ^(٩)

- (١) الوشاة: ج الواشي وهم النمامون، وقد سموا ليشوا به إلى النبي. جنابها: أي سائر من على جانبي ناقة كعب. لمقتول: أي إن النبي سيقنتك.
- (٢) خلوا سبيلي: دعوني وحدي. لا أبا لكم: نوع من الدعاء.
- (٣) آلة حدباء: نعش الميت.
- (٤) أوعدي: هددني.
- (٥) نافلة القرآن: عطية القرآن. التفصيل: التبيين.
- (٦) جنح الظلام: الطائفة من الليل؛ مدرعًا جنح الظلام: أي لابسًا الظلام كالدرع. ثوب الليل مسبول: أي ظلام الليل شامل الموجودات.
- (٧) ما أنزعها: أي لا أجذبها. القيل: أي القول الحق.
- (٨) أي انه سيف هدى. لما سمع محمد هذا البيت خلع على الشاعر بردته.
- (٩) لذاك: أي النبي. أهيب: أكثر هيبة. منسوب: ستأل عن نسبك أمام النبي. مسؤول: أي أنت مسؤول عن التهم الموجهة إليك.

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لِيُوثِ الْأَرْضِ ، مَسْكِنُهُ مِنْ بَطْنِ عَثْرَ ، غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ^(١)
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ ، عَيْشُهُمَا لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلٌ^(٢)

(١) الخادر: الأسد في خدره أي في عرينه. ليوث: ج ليث؛ أسد. عثر: مكان مشهور بالأسود. غيل: خبر تان لـ «مسكنه» وهو بمعنى: الاجمة. وغيل دونه غيل بمعنى: أجمة أمامها أجمة، أي مسكن ذلك الليث هو وسط غابات مترامية الأطراف.

(٢) يغدو: يذهب غدوة، أي صباحًا. يلحم: يطعم اللحم. ضرغام: أسد. - يقول: يذهب صباحًا إلى الصيد ليطعم شبليه من لحم البشر. معفور: مبرغ بالتراب. خراديل: ج خردلة؛ قطعة لحم صغيرة.

أحمد شوقي في المديح النبوي

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد (١٨٦٨ م / ١٢٨٥ هـ - ١٩٣٢ / ١٣٥١ هـ). مولده ووفاته في القاهرة. عاش حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. وعالج أكثر فنونه، فجرى شعره على كلّ لسان. من آثاره «الشوقيات»، وهو ديوان شعره، و«دول العرب»، و«مصرع كليوباترة»، و«عنترة» و«مجنون ليلي»، و«قمبيز»، وغيرها.

وله ثلاث قصائد مشهورة في المديح النبوي.

وفيما يلي قصيدته الهمزية في مدح النبي (ﷺ)، ثم بائته المشهورة.

الهمزية النبوية

وُلِدَ الْهُدَى، فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَقَسْمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنَسَاءُ
الرُّوحِ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَسْوَأْسُهُ لِلدَّيْنِ وَالذُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ^(١)
وَالْعَرْشُ يَزُوهُ، وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى، وَالسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ^(٢)

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملأ: الاشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال انها شجرة نبق على يمين العرش.

وَخَدِيقَةُ الْفُرْقَانِ ضَاحِكَةُ الرَّبِّ
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلًا مِنْ سَلْسَلِ
نُظِمَتِ أَسَامِي الرُّسُلِ فَهِيَ صَحِيفَةٌ
اسْمُ الْجَلَالَةِ فِي بَدِيعِ حُرُوفِهِ

بِالترجمانِ، شَذِيَّةٌ، غَنَاءٌ (١)
وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْبَسْدِيُّ رُؤَاةٌ (٢)
فِي اللَّوْحِ، وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءٌ (٣)
أَلِفٌ هُنَالِكَ، وَاسْمُ (طَه) الْبَاءِ

★ ★ ★

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ، تَحِيَّةٌ
بَيَّتِ النَّبِيْنَ الَّذِي لَا يَلْتَقِي
خَيْرُ الْأَبْوَةِ حَاذَهُمْ لَكَ (آدَمُ)
هُمُ أَدْرَكُوا عِزَّ النَّبُوَّةِ وَأَنْتَهَتْ
خُلِقَتْ لِيَّتِيكَ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهَا
بِكَ بَشَرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَرُيِّنَتْ
وَبَدَأَ مُحَيَّاكَ الَّذِي قَسَمَاتُهُ
وَعَلَيْهِ مِنْ نُورِ النَّبُوَّةِ رَوْنَقٌ

مِنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَى بِكَ جَاؤُوا
إِلَّا الْحَنَائِفُ فِيهِ وَالْحَنَفَاءُ (٤)
دُونَ الْأَنْسَامِ، وَأُخْرَزَتْ حَسَوَاءُ
فِيهَا إِلَيْكَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ (٥)
إِنَّ الْعِظَائِمَ كُنُفُهَا الْعُظْمَاءُ
وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَ بِكَ الْغَبْرَاءُ (٦)
حَقٌّ، وَغُرَّتْهُ هُدَى وَحِيَاءُ (٧)
وَمِنَ الْخَلِيلِ وَهَدِيهِ سِيَمَاءُ (٨)

(١) الربا: جمع ربة. وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) الرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

(٣) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

(٤) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام، والجمع حنفاء، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.

(٥) القعساء: المنفعة الثابتة.

(٦) تضوع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

(٧) القسمة: ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسما.

(٨) الخليل: إبراهيم عليه السلام.

أَتَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِ خَلْفَ سَمَائِهِ
يَوْمَ يَتِيَهُ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ
الْحَقُّ عَالِي الرُّكْنِ فِيهِ، مُظْفَرٌ
ذُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ، فَزُلْزِلَتْ
وَالنَّارُ خَاوِيَةٌ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ
وَالْآيُ تَتْرَى، وَالخَوَارِقُ جَمَّةٌ
نِعْمَ الْيَتِيمُ بَدَتْ مَخَائِلُ فَضْلِهِ
فِي الْمَهْدِ يُسْتَسْقَى الْحَيَا بِرَجَائِهِ
بِسَوَى الْأَمَانَةِ فِي الصَّبَا وَالصَّدَقِ لَمْ
يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعَلَا
لَوْ لَمْ تُقَمْ دِينًا لَقَامَتْ وَحْدَهَا
زَانَتِكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلٌ
أَمَّا الْجَمَالُ فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائِهِ
وَالْحُسْنُ مِنْ كَرَمِ الْوُجُوهِ، وَخَيْرُهُ

وَتَهَلَّلْتُ وَاهْتَسَرَّتِ الْعِذْرَاءُ (١)
وَمَسَاوُهُ بِمَحْمَدٍ وَضَمَاءُ
فِي الْمَلِكِ، لَا يَعْلَمُ عَلَيْهِ لِسْوَاءُ
وَعَلَّتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا، وَغَاضَ الْمَاءُ (٢)
(جَبْرِيلُ) رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ (٣)
وَالْيَتِيمُ رِزْقٌ بَعْضُهُ وَذِكَاةُ (٤)
وَبِقَصْدِهِ تُسْتَدْفَعُ الْبِأَسَاءُ (٥)
يَعْرِفُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ وَالْأَمْنَاءُ
مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبْرَاءُ
دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ
يُغْرَى بِهِنَ وَيُولَعُ الْكِرْمَاءُ
وَمَلَاحَةٌ (الصَّدِيقِ) مِنْكَ أَيَاءُ (٦)
مَا أُوْتِيَ الْقُسُودُ وَالرُّعْمَاءُ

-
- (١) العذراء السيدة مريم.
(٢) خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء والمراد بالذوائب هنا السنة اللهب.
(٣) تترى: تتوالى. ورواح غداء أي يروح ويغدو.
(٤) المخيلة: المظنة.
(٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: العطر.
(٦) أياء الشمس وإياتها: نورها وحسنها.

فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى
 وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا، وَمَقْدَرًا
 وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ، أَوْ أَبٌ
 وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّهَا هِيَ غَضِبَتْ
 وَإِذَا رَضِيْتَ فَذَلِكَ فِي مَرْضَاتِهِ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ
 وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا أَرْتِيَابَ، كَأَنَّمَا
 وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدْ، وَلَوْ
 وَإِذَا أَجَرْتَ فَأَنْتَ تَيْتُ اللَّهِ، لَمْ
 وَإِذَا مَلَكَتَ النَّفْسَ قُمْتَ بِرَّهَا
 وَإِذَا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجٍ عَشْرَةٌ
 وَإِذَا صَحَبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مُجَسَّمًا
 وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ، أَوْ أُعْطِيَتْهُ
 وَإِذَا مَشَيْتَ إِلَى الْعِدَا فَعُضُنْفَرٌ
 وَتَمُدُّ حِلْمَكَ لِلسَّفِيهِ مُسْدَارِيًّا
 وَقَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنْوَاءُ (١)
 لَا يَسْتَهِينُ بِعُقُوكَ الْجُهْلَاءُ
 هَذَا فِي الدُّنْيَا هَمَّا الرَّحَمَاءُ
 فِي الْحَقِّ، لَا ضِغْنٌ وَلَا بَغْضَاءُ (٢)
 وَرَضَى الْكَثِيرَ تَحَلَّمَ وَرِيَاءُ (٣)
 تَعَرُّو النَّدَى، وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ (٤)
 جَاءَ الْخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
 أَنَّ الْقِيَاصِيرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ
 يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرَ عِدَاءُ
 وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتَ يَدَاكَ الشَّاءُ
 وَإِذَا أَبْتَنَيْتَ فَدُونَكَ الْآبَاءُ (٥)
 فِي بُرُوكِ الْأَصْحَابِ وَالْمُخْلَطَاءُ
 فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
 وَإِذَا جَرَيْتَ فَإِنَّكَ النُّكْبَاءُ (٦)
 حَتَّى يَضِيقَ بِعِرْضِكَ السَّقْمَاءُ

(١) النوء : المطر .

(٢) الضغن : الحقد .

(٣) التحلم ، تكلف الحلم .

(٤) الندى ، النادى .

(٥) بنى بأهله : زف اليهم . وامتنى : صار له بنون .

(٦) عضنفر : أسد ، والنكباء : ريح بين ريحين .

في كلِّ نفسٍ من سَطَاكَ مَهَابَةٌ وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءٌ (١)
وَالرَّأْيُ لَمْ يُنْضِ الْمُهَنْدُ دُونَهُ كَالسَّيْفِ لَمْ تَضْرِبْ بِهِ الْآرَاءُ (٢)

★ ★ ★

يَأْيَهَا الْأَمِّيُّ، حَتْبُكَ رِثْبَةٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ دَانَتْ بِكَ الْعُلَمَاءُ (٣)
الذِّكْرُ آيَةٌ وَرَبُّكَ الْكُبْرَى الَّتِي فِيهَا لِيَاغِي الْمُعْجِزَاتِ غِنَاءُ (٤)
صَدْرُ الْبَيَانِ لَهُ إِذَا أَلْتَقَتِ اللَّعَى وَتَقَدَّمَ الْبُلْغَاءُ وَالْفُصْحَاءُ (٥)
نُيخَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَهِيَ وَضِيئَةٌ وَتَخَلَّفَ الْإِنْجِيلُ وَهُوَ ذُكَاةٌ (٦)
لَمَّا تَمَشَى فِي (الْحِجَازِ) حَكِيمُهُ فَضَّتْ (عُكَاظُ) بِهِ، وَقَامَ حِرَاءُ (٧)
أَزْرَى بِمَنْطِقِ أَهْلِهِ وَبَيَانِهِمْ وَحْيِي يُقْصَرُ دُونَهُ الْبُلْغَاءُ (٨)
حَتَدُوا، فَقَالُوا: شَاعِرٌ، أَوْ سَاحِرٌ وَمِنَ الْحَسُودِ يَكُونُ الْأَسْتِهْزَاءُ
قَدْ نَالَ (بِالْهَادِي) الْكَرِيمِ وَ(بِالْهَدَى) مَا لَمْ تَنْسَلْ مِنْ سُودِدِ سِينَاءِ
أُمِّي كَأَنَّكَ مِنْ جَلَالِكَ أُمَّةٌ وَكَأَنَّهُ مِنْ أَنْسِيهِ بَيْسَاءِ
يُوحَى إِلَيْكَ الْفَوْزُ فِي ظُلْمَاتِهِ مُتَّابِعًا، تُجَلِّسِي بِهِ الظَّلْمَاءِ
دِينٌ يُشِيدُ آيَةً فِي آيَةٍ لِبِنَاتِهِ السُّورَاتُ وَالْأَضْوَاءُ

(١) سطا: جمع سطوة.

(٢) نضا السيف من غمده. سله والمهند: السيف المطبوع من حديد.

(٣) دان به: اتخذه ديناً.

(٤) الباغي: الطالب. والغناء: ما يعني.

(٥) اللعى: جمع لغة.

(٦) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٧) حراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

(٨) أزرى به: عابه.

والله جليلٌ جَلَّالُهُ البَنَسَاءُ ٩
والعِلْمُ والحِكْمُ الغَسَوَالِي المَاءُ (١)
والسِينُ مِنْ سُورَاتِهِ والِرَاءُ (٢)
مِنْ دَوْحِهِ، وَتَفَجَّرَ الإنْشَاءُ (٣)
أَدَبِ الحَيَاةِ وَعَلِمَهَا إِرْسَاءُ
تَفَنَ السَّلَافُ، وَلَا سَلَا النُّدْمَاءُ (٤)
بالحقِّ مِنْ مِلَلِ الهُدَى غِرَاءُ (٥)
نَادَى بِهَا سُقْرَاطُ والقُدْمَاءُ
كَالشَّهَدِ، ثُمَّ تَتَابَعِ الشَّهْدَاءُ
كُهَّانُ وَاذِي النِّيلِ والعُرْفَاءُ (٦)
أَخَذَتْ قِيَامَ أُمُورِهَا الأَشْيَاءُ (٧)
وَأَصَمَّ مِنْكَ الجَاهِلِيْنَ نِدَاءُ
وَالنَّاسُ فِي أَوْهَامِهِمْ سُجْنَاءُ
وَمِنَ النُّفُوسِ خَرَائِرٌ وإِمَاءُ (٨)

الحقُّ فيه هو الأساسُ، وكيف لا
أما حديثك في العقولِ فمشرعٌ
هو صبغةُ الفرقانِ، نَفْحَةُ قُدْسِهِ
جَرَتِ الفَصَاحَةُ مِنْ يَنَابِيعِ النُّهَى
فِي بَحْرِهِ لِلسَّابِحِينَ بِهِ عُلَى
أَتَتِ الدُّهُورُ عُلَى سَلَفَتِهِ، وَلَمْ
يَكْ يَا ابْنَ عَبْدِاللهِ قَامَتْ سَمْحَةُ
بُنِيَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَهِيَ حَقِيقَةُ
وَجَدَ الزُّعَافَ مِنَ السُّمُومِ لِأَجْلِهَا
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا
إِيزِيسُ ذَاتُ المُلْكِ حِينَ تَسَوَّحَدَتْ
لَمَّا دَعَوَتْ النَّاسَ لَبَّى عَاقِلٌ
أَبُو الخُرُوجِ إِلَيْكَ مِنْ أَرْهَامِهِمْ
وَمِنَ العُقُولِ جَدَاوِلٌ وَجَلَامِيدٌ

(١) ممشوع: مورد.

(٢) الصبغة: النوع.

(٣) الدوح: الشجر العظيم المتسع.

(٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.

(٥) السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق.

(٦) العراف: المنجم، والجمع عرفاء.

(٧) ايزيس: من آلهة المصريين القدماء.

(٨) الجدول: النهر الصغير، والجلمود: الصخر.

داءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرِسْطَالِيْسَ لَمْ
 فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكُومَةَ
 اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ
 وَالذِّينُ يُسْرَرُ، وَالخِلَافَةُ بِيَعَةَ
 الْإِشْتِرَاكِيُونِ أَنْتَ إِمَامُهُمْ
 دَاوَيْتَ مُتَّيِّدًا، وَدَاوَا ظَفْرَةَ
 الْحَرْبِ فِي حَقِّ لَدِيكَ شَرِيعَةَ
 وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ، وَفَرِيضَةُ
 جَاءَتْ فَوَحَّدَتْ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ
 أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
 فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً

يُوصَفُ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءً
 لَا سُوقَةَ فِيهَا وَلَا أَمْرَاءَ
 وَالنَّاسُ تَخْتَلِئُ لَوَائِهَا أَكْفَاءَ
 وَالْأَمْرُ سُورِي، وَالْحُقُوقُ قِضَاءَ
 لَوْلَا دَعَاوِي الْقَوْمِ وَالْغُلُوءُ (١)
 وَأَخْفُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ (٢)
 وَمِنْ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءً (٣)
 لَا مِئَةَ مَمْنُونَةٍ وَجَبَاءَ (٤)
 حَتَّى التَّقَى الْكُرْمَاءَ وَالْبُخْلَاءَ
 فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
 مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينِكَ الْفُقَرَاءُ

★ ★ ★

يَا أَيُّهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرَفًا إِلَى
 يَتَسَاءَلُونَ - وَأَنْتَ أَطْهَرُ هَيْكَلٍ -
 بِهِمَا سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْنِ، كِلَاهِمَا

مَا لَا تَسْأَلُ الشَّمْسُ وَالْجِسُورُ (٥)
 : بِالرُّوحِ أَمَّ بِالْهَيْكَلِ الْإِسْرَاءُ (٦)
 نُورٌ، وَرِيحَانِيَّةٌ، وَبِهَاءُ

(١) الغلواء: الغلوة.

(٢) متئداً: متالياً. وظفر: وتب.

(٣) الناقعات: القاتلات.

(٤) البر: الاحسان. وذمة: عهد. والمنة: العطية، والممنونة: المتبوعة بالمن.

(٥) الاسراء: السير ليلاً.

(٦) الهيكل الجسم والصورة والشخص.

فضلٌ عليك لذي الجلالِ ومِنَّةٌ
تَغْشَى الغُيُوبَ مِنَ العوالمِ ، كَلِّمًا
في كلِّ مِنطِقَةٍ حواشي نورها
أنتَ الجمالُ بها ، وأنتَ المجتلي
اللهُ هَيَّأَ من حظيرةِ قُدْسِهِ
العرشُ تحتَكَ سُدَّةً وقوائِمًا
والرُّسُلُ دون العرشِ لم يُؤدَّنْ لهم

★ ★ ★

الْحَيْلُ تَأْبَى غَيْرَ (أحمد) حاميًا
شيخُ الفوارسِ يَعْلَمُونَ مكانه
وإذا تصدَّى للظُّبَى فمُهَنْدٌ
وإذا رمى عن قوسِهِ فَيَمِينُهُ
من كلِّ داعي الحقِّ هِمَّةٌ سيفه
ساقِي الجريحِ ومُطعمُ الأسرى ، ومن
إنَّ الشَّجَاعَةَ في الرجالِ غلاظةٌ
والحربُ من شَرَفِ الشُّعُوبِ ، فإن بَغَوًا
والحَرْبُ يبعثها القويُّ تجبُّرًا

(١) غشي المكان يغشاه: أناه.

(٢) الظبي: جمع ظبه، وهي حد السيف، والصعدة: القناة المستوية.

(٣) مضى السيف مضاء: قطع.

كَمْ مِنْ غَزَاةٍ لِلرَّسُولِ كَرِيمَةٍ
كَانَتْ لَجُنْدِ اللَّهِ فِيهَا شِدَّةٌ
ضَرَبُوا الضَّلَالَةَ ضَرْبَةً ذَهَبَتْ بِهَا
دَعَمُوا عَلَى الْحَرْبِ السَّلَامِ، وَطَالَمَا

★ ★ ★

الْحَقُّ عَرِضُ اللَّهِ، كُلُّ آيَّةٍ
هَلْ كَانَ حَوْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ قَوْمِهِ
فَدَعَا، فَلَبَّى فِي الْقِبَائِلِ عُصْبَةٌ
رَدُّوا بِأَسْرِ الْعِزْمِ عَنْهُ مِنَ الْأَذَى
وَالْحَقُّ وَالْإِيمَانُ إِنْ صَبَّأَ عَلَى
تَسْفَوْا بِنَاءِ الشَّرْكَ، فَهَوَّ خِرَائِبُ
يَمْشُونَ تُغْضِي الْأَرْضُ مِنْهُمْ هَيْبَةً
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا
يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَخُدَّةُ
عَرْشِ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوَائِهِ
تُرْوَى وَتُسْقَى الصَّالِحِينَ ثَوَابِهِمْ
أَلَمْ تَلْ هَذَا ذُقْتَ فِي الدُّنْيَا الطَّسْوَى

بَيْنَ النُّفُوسِ حِمَى لَهْ وَوَقَاءُ
إِلَّا صَيْبِيَّ وَاحِدًا وَيَسَاءُ؟
مُسْتَضْعَفُونَ، قَلَائِلَ أَنْضَاءُ^(١)
مَا لَا تَرُدُّ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءُ
بَسْرِدٍ فِيهِ كَتِيْبَةٌ خَرَسَاءُ^(٢)
وَاسْتَأْصَلُوا الْأَصْنَامَ، فَهِيَ هَبَاءُ^(٣)
وَبِهِمْ حِيَالٌ نَعِيمِهَا إِغْضَاءُ
لَمْ يُطْفِئِهِمْ تَرَفٌّ وَلَا نَعْمَاءُ
وَهُوَ الْمَنْزَرَةُ، مَا لَهُ شُفْعَاءُ
وَالْحَوْضُ أَنْتَ حِيَالَهُ السَّقَاءُ
وَالصَّالِحَاتُ ذَخَائِرٌ وَجَزَاءُ
وَأَنْشَقَّ مِنْ خَلْقٍ عَلَيْكَ رِدَاءُ؟

(١) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.

(٢) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.

(٣) الهباء: الغبار.

لي في مديحك يا رسول عرائس
 هنّ الحسان، فإنّ قبلت تكررماً
 أنت الذي نظمت البريّة دينه
 المصلحون أصابع جمعت يداً
 ما جئتُ بابك مادحاً، بل داعياً
 أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة
 أدري رسول الله أنّ نفوسهم
 متفككون، فما تضمّ نفوسهم
 رقدوا، وغرهم نعيم باطل

★ ★ ★

ظلموا شريعتك التي نلنا بها
 مشّت الحضارة في سناها، واهتدى
 صلتى عليك الله ما صجّب الدجى
 واستقبل الرضوان في غرفاتهم
 خير الوسائل، من يقع منهم على
 ما لم ينل في رومة الفقهاء
 في الدين والدنيا بها السعداء
 حادٍ، وحنّست بالفلا وجنّاء^(٢)
 يجنان عدنك ألك السمحاء
 سبب إليك فحسبي الزهراء

(١) شاقه الحب: هاجه.

(٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

ذكري المولد

سَلُوا قَلْبِي غَسَاةَ سَلَا وَثَابَا
 وَيُسْأَلُ فِي الْحَوَاثِ ذُو صَوَابِ
 وَكُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ الْقَلْبَ يَوْمًا
 وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ
 تَسْرَبُ فِي الدَّمُوعِ ، فَقُلْتُ : وَلِي
 وَلَوْ خُلِقَتْ قُلُوبٌ مِنْ حَدِيدِ
 وَأَحْبَابٍ سُقِيَتْ بِهِمْ سَلَا قَا
 وَنَادَمْنَا الشَّبَابَ عَلَى بِسَاطِ
 وَكُلُّ بِسَاطِ عَيْشٍ سَوْفَ يُطْوَى
 كَأَنَّ الْقَلْبَ بَعْدَهُمْ غَرِيبٌ
 لَعَلَّ عَلَى الْجَمَالِ لَهُ عِتَابَا
 فَهَلْ تَرَكَ الْجَمَالَ لَهُ صَوَابَا ؟
 تَوَلَّى الدَّمْعُ عَن قَلْبِي الْجَوَابَا
 هُمَا الْوَاهِي الَّذِي تُكِلَ الشَّبَابَا (١)
 وَصَفَّقَ فِي الضُّلُوعِ ، فَقُلْتُ : ثَابَا (٢)
 لَمَّا حَمَلْتُ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابَا
 وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصْرِ حَبَابَا (٣)
 مِنْ اللَّسَاتِ مُخْتَلِفِ شَرَابَا
 وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَطَايَا
 إِذَا عَادَتْهُ ذِكْرِي الْأَهْلِ ذَابَا

(١) الواهي: الضعيف. وتكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تملوه.

وَلَا يُنْبِئُكَ عَنْ خُلُقِ اللَّيَالِي
 أَخَا الدُّنْيَا، أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى
 وَأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقَظُ هَسَاجِعَاتِ
 وَمِنْ عَجَبِ تُشَيَّبُ عَاشِقِيهَا
 فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فإِنِّي
 لَهَا ضَحِكُ الْقِيَانِ إِلَى غَيْبِي
 جَنَيْتُ بَرَوْضِيهَا وَرَدَا، وَشَوْتُكََا
 فَلَمْ أَرِ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمَا
 وَلَا عَظَمْتُ فِي الْأَشْيَاءِ إِلَّا
 وَلَا كَرَّمْتُ إِلَّا وَجْهَ حُرِّ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ جَمْعِ الْمَالِ دَاءً
 فَلَا تَقْتُلْكَ شَهْوَتُهُ، وَزِنْهَا
 وَخُذْ لَيْتِيكَ وَالْأَيَّامِ ذَخْرًا
 فَلَوْ طَالَعْتَ أَحْدَاثَ اللَّيَالِي
 كَمَنْ فَقَدَ الْأَحْيَةَ وَالصَّحَابَا
 تُبَدِّلُ كُلَّ أَوْنَسَةٍ إِهَابَا
 وَأَتْرَعُ فِي ظِلَالِ السَّلْمِ نَابَا^(١)
 وَتُفْنِيهِمْ، وَمَا بَرَحَتْ كَعَابَا^(٢)
 لَيْسَتْ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا
 وَلِي ضَحِكُ اللَّيْسِبِ إِذَا تَغَابَا^(٣)
 وَذُقْتُ بِكَأْسِهَا شُهْدَا، وَصَابَا
 وَلَمْ أَرِ دُونَ بَابِ اللَّهِ بِبَابَا
 صَحِيحَ الْعِلْمِ، وَالْأَدَبِ اللَّبَابَا^(٤)
 يُقَلِّدُ قَوْمَهُ الْبِنْسَانَ الرَّغَابَا^(٥)
 وَلَا مِثْلَ الْبَحْخِيلِ بِهِ مُصَابَا
 كَمَا تَزِينُ الطَّعَامَ أَوْ الشَّرَابَا
 وَأَعْطَى اللَّهُ حِصَّتَهُ احْتِسَابَا^(٦)
 وَجَدَّتْ الْفَقْرَ أَقْرَبَهَا انْتِيَابَا^(٧)

(١) الرقطة: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض وأترع: أسرع إلى الشر.

(٢) الكعاب: الجارية الناهد.

(٣) القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية.

(٤) اللباب: المختار الخالص.

(٥) الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.

(٦) احتسب عند الله أمرا: قدمه.

(٧) انتابه: أتاه مرة بعد أخرى.

وَأَنَّ الْبِرَّ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ
 وَأَنَّ الشَّرَّ يَضْدَعُ فَاعِلِيهِ
 فَرَفَقَا بِالْبَيْنِ إِذَا اللَّيَالِي
 وَلَمْ يَتَقَلَّدُوا شُكْرَ الْيَتَامَى
 عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ صَلُّوا وَصَامُوا
 وَتَلْفِيهِمْ حِيَالِ الْمَالِ صُمَّمَا
 لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللَّهِ مِنْهُ
 وَمَنْ يَغْدِلْ بِحُجْبِ اللَّهِ شَيْئًا
 أَرَادَ اللَّهُ بِالْفُقَرَاءِ بِرًّا
 فَرُبَّ صَغِيرٍ قَوْمٍ عَلَّمُوهُ
 وَكَانَ لِقَوْمِهِ نَفْعًا وَفَخْرًا
 فَعَلَّمْ مَا اسْتَطَعْتَ، لَعَلَّ جِيلاً
 وَلَا تُرْهِقُ شَبَابَ الْحَيِّ يَأْسًا
 يُرِيدُ الْخَالِقُ الرِّزْقَ اشْتِرَاكًا

وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ نَوَابِهَا
 وَلَمْ أَرَ خَيْرًا بِالشَّرِّ آبَا
 عَلَى الْأَعْقَابِ أَوْقَعَتِ الْعِقَابِهَا
 وَلَا ادَّرَعُوا الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابِهَا^(١)
 عَوَاهِرًا، خِشْيَةً وَتَقَى كِذَابِهَا^(٢)
 إِذَا دَاعِي الزَّكَاةِ بِهِمْ أَهَابِهَا^(٣)
 كَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُخْصِ النَّصَابِهَا
 كَحُبِّ الْمَالِ؛ ضَلَّ هَوَى وَخَابِهَا
 وَبِالْإِيْتَامِ حُبًّا وَارْتِبَابِهَا^(٤)
 سَمًا وَحَمَى الْمَسُومَةَ الْعِرَابِهَا^(٥)
 وَلَوْ تَرَكَوه كَانَ أَدَى وَعَابِهَا^(٦)
 سَيَاتِي يُحَدِّثُ الْعَجَبَ الْعُجَابِهَا
 فَإِنَّ الْيَأْسَ يَخْتَرِمُ الشَّبَابِهَا^(٧)
 وَإِنْ يَكُ خَصَّ أَقْوَامًا وَحَابِهَا^(٨)

(١) ادرع: لبس الدرع.

(٢) الكذاب: الكذب.

(٣) أهاب به: دعاه.

(٤) أرتب الصبي ارتبابا: رباه حتى أدرك.

(٥) الخيل المسومة: المرعية والخيل العراب: الكرائم.

(٦) العاب: العيب.

(٧) أرهقه طغيانا: أغشاه إياه. ويخترم الشباب: يستأصله.

(٨) حاباه: اختصه ومال إليه.

فَمَا حَرَمَ الْمُجِدَّ جَنَى يَدَيْهِ
 وَلَوْلَا الْبُخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقٌ
 تَعَيْتُ بِأَهْلِيهِ لَوْمًا، وَقَبْلِي
 وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادٍ
 أَلَمْ تَرَ لِلهَوَاءِ جَرَى فَأَفْضَى
 وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي الْآفَاقِ تَفْشَى
 وَأَنَّ الْمَاءَ تُسْرَوِي الْأَسَدُ مِنْهُ
 وَسَوَى اللَّهِ بَيْنَكُمْ الْمُنَايِسَا
 وَأَرْسَلَ عَائِلًا مِنْكُمْ يَتِيمًا
 نَبِيَّ الْبِرِّ، يَبَيِّنُ سَبِيلًا
 تَفَرَّقَ بَعْدَ عَيْتِي النَّاسُ فِيهِ
 وَشَافِي النَّفْسِ مِنْ نَزَعَاتِ شَرِّ
 وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَسْدِي سُبُلًا

وَلَا نَبِيَّ الشَّقِيِّ، وَلَا الْمُصَابِيَا (١)
 عَلَيَّ الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غِيَابَا
 دُعَاةُ الْبِرِّ قَدْ سَيَّمُوا الْخِطَابَا
 فَجَرَّتْ بِهِ الْبِنْسَايِعَ الْعِذَابَا
 إِلَى الْأَكْوَاخِ، وَاخْتَرَقَ الْقِيَابَا؟ (٢)
 حِمَى كِسْرَى، كَمَا تَغْشَى الْيَابَا؟ (٣)
 وَيَشْفِي مِنْ تَلْعُلْعِهَا الْكَلَابَا؟ (٤)
 وَوَسَدَكُمْ مَعَ الرَّسْلِ التُّرَابَا؟ (٥)
 دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا؟ (٦)
 وَسَنَّ خِلَالَهُ، وَهَدَى الشُّعَابَا؟ (٧)
 فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابَا؟ (٨)
 كَشَافٍ مِنْ طَبَائِعِهَا الذُّنَابَا؟ (٩)
 وَكَانَتْ حَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا

(١) الجنى، ما نجني من الشجر .

(٢) أفضى : بلغ .

(٣) الياباب : القفر .

(٤) تلعلع الكلب : دلع لسانه عطشا .

(٥) سوى : جعلكم فيها سواء .

(٦) عائلا : فقيرا . وقاب القوس : ما بين المقبض والطرف، والمراد أنه كان قريبا .

(٧) الشعاب : الطرق .

(٨) الضمير في « فيه » يعود إلى البر .

(٩) النزعات : الوسوس .

وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ، حَتَّى
وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ
أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا
وَلَكِنْ تُؤَخِّدُ الدُّنْيَا غِلَابَا^(١)
إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا

★ ★ ★

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي، وَعَمَّتْ
وَأَسَدَتْ لِلْبُرِّيَّةِ بِنْتُ وَهْبٍ
لَقَدْ وَضَعْتَهُ وَهَاجًا، مُنِيرًا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نَوْرًا
وَضَاعَتْ يَثْرِبُ الْفَيْحَاءِ مِسْكَ
أَبَا الزَّهْرَاءِ، قَدْ جَاوَزَتْ قَدْرِي
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانَ
مَدَحْتَ الْمَالِكِينَ، فَرِذْتُ قَدْرًا
سَأَلْتُ اللَّهَ فِي أُنْبَاءِ دِينِي
وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سِوَاكَ حِصْنٌ
كَأَنَّ النُّحْسَ حِينَ جَرَى عَلَيْهِمْ
بَشَائِرُهُ الْبَوَادِي وَالْقِصَابَا^(٢)
يَدَا بَيْضَاءَ، طَوَّقَتِ الرَّقَابَا^(٣)
كَمَا تَلِدُ السَّمَاوَاتُ الشَّهَابَا^(٤)
يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنَّقَابَا^(٥)
وَفَاحَ الْقَاعِ أَرْجَاءَ وَطَابَا^(٦)
بِمَدْحِكَ، يَيْدُ أَنْ لِي انْتِسَابَا
إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
فَحِينَ مَدَحْتِكَ اقْتَدَتْ السَّحَابَا
فَإِنْ تَكُنِ الْوَسِيلَةَ لِي أَجَابَا
إِذَا مَا الضَّرُّ مَسَّهُمْ وَنَابَا
أَطَارَ بِكُلِّ مَمْلَكَةٍ غُرَابَا

(١) غلابا: قهرا.

(٢) القصا: جمع قصة، وهي المدينة.

(٣) بنت وهب: السيدة آمنة، أمه صلى الله عليه وسلم.

(٤) الشهاب: الكواكب.

(٥) نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.

(٦) ضاع المسك: تحرك فانتشرت رائحته.

وَلَوْ حَفِظُوا سَبِيلَكَ كَمَا نَسُوا
بَنِيَتْ لَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ رُكْنًا
وَكَمَا جَنَابُهُمْ فِيهَا مَهِيًّا
فَلَوْلَاهَا لَسَاوَى اللَّيْثُ ذُبَابًا
فَإِنْ قُرِنْتَ مَكَارِمُهَا بِعِلْمٍ
وَفِي هَذَا الزَّمَانِ مَسِيحُ عِلْمٍ
وَكَمَا مِنَ النَّحُوسِ لَهُمْ حِجَابًا
فَخَانُوا الرُّكْنَ، فَانْهَدَمَ اضْطِرَابًا
وَلِلْأَخْلَاقِ أَجْدَرُ أَنْ تُهَابَا
وَسَاوَى الصَّارِمِ الْمَاضِي قِرَابًا
تَذَلَّلْتَ الْعُلَا بِهَمَا صَعَابَا
يَرُدُّ عَلَى بَنِي الْأُمَمِ الشَّبَابَا

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع، فأثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم. ولكنّه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ الجاهليّة نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من فرق شاسع، ولما بين بيته الصغير وقصورهم من مدى يبهر النظر ويسحر القلب. وقد رأى بأنّ عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرك لسانه بالإعجاب.

ففي الجاهليّة قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق، ورأى مظاهر الترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك، وعاد إلى قومه بصور تعبّر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لأهلها ولنظام حياتهم. إنهم ملوك ولكنهم إخوان يحكمون الشاعر الضيف بأموالهم فيشعر أنه بين أهله وأقاربه.

وقد كانت دهشة الشاعر عظيمة حين دخل إلى قصور الملوك، فنسب بناءها إلى الجنّ، فهو لم يشاهد من قبل أعمدة «تدمر» الشامخة، لذلك جعل للنعمان فضلاً على الناس جميعاً وجعله في كرمه شبيهاً بنهر الفرات حين يفيض ماؤه. ثم انتقل إلى تشبيه ممدوحه بالرّبيع في عطائه والسيف في مضائه:

وأنتَ ربيعٌ ينعشُ الناسَ سيّبهُ وسفّ أعيرتهُ المنيةُ قساطعُ

أو إلى تشبيهه بالكواكب :

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلّعتْ لم يبدُ منهمْ كوكبٌ

وقد أجمع النقاد على القول إنّ النابغة هو أول المحترفين في فن المديح.

وقد سار الأعرشى على سنة النابغة، ولكنه انحطّ إلى درك التكسب المشين. ثم تبعه حسان بن ثابت الذي مدح ملوك الغساسنة وامراءهم وذكر ديارهم العامرة ووصف ترفهم ونعيمهم، حتى جاء الأخطل شاعر بني أمية الذي أعاد صورة تدفق الفرات حين مدح كرم عبد الملك بن مروان. ثم تبعه الفرزدق طامعاً في مدح خلفاء بني أمية، وما لبث جرير أن لحق برفيقه مستجدياً في مديحه حيث قال في بني أمية بحضرة الخليفة عبد الملك:

ألستُم خيرَ من ركبَ المطايا وأنسدى العالَميسنَ بطسونَ راحِ

ولمّا أطلّ العصر العباسي تراحم الشعراء على أبواب الخلفاء يرجون النوال والعطاء، ولا سيما في مواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم، فأضافوا على المعاني القديمة صوراً بديعة تتناسب مع متطلبات الخلافة. فالخليفة كريم شجاع، مشرق الوجه، يصلح الفساد، ويأمر بالعدل والإحسان، يتعلّق بالدين، ويؤمّن العدالة، ويبسط الأمن ويدافع عن الثغور. ولا ينسى الشاعر أن يذكر حسبه ونسبه ليصل في نهاية الأمر إلى أنّه خير من يمشي على قدم.

فها هو أبو العتاهية يمتدح هارون الرشيد قائلاً:

إذا نُكِبَ الإسلامُ يومًا بنكبَةٍ فهارونُ من بين البريّة ناصيرُهُ

ثمّ تبعه أبو تمام فرأى في الخليفة مفتاح النصر والظفر. فديوانه حافل بالمديح والإشادة بالانتصارات والفتوحات، وقد خصّ بمدائحه الخلفاء: المعتصم والواثق والمأمون. ثم جاء البحتري بعد أستاذه لينبئ للخليفة المعترز بالله ثم ينتقل بعده

إلى المهتدي فالمتوكل. وأخيراً أطلّ على مسرح الشعر أبو الطيّب المتنبي فكان خير ممثلٍ لشعراء المديح، فانتقل من ملك إلى ملك ومن أمير إلى أمير وشهرته تسبقه، فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير فحتم على غيره من الشعراء وسدّ الباب على كبار شعراء المديح قبله وبعده.

وقد ظل شعر المديح المتكسب يتردّد على مسامع الناس بعد العصور العباسية، ولكنه سجّل انحداراً بعد هذا العلوّ الشاهق. فأصبح الشعراء يلحّون في طلب المال فيبيعون شعرهم ونفوسهم. وإن كان المتنبي قد طلب في شعره ضيعة أو ولاية من ممدوحه فإنّ الشاعر عمارة اليميني طلب من أحد الممدوحين قائلاً:

فَأَمْسُنْ عَلِيَّ بِنَصْفِ الْأَلْفِ رَاتِبَةً فَقَدَرُ وَذَكَ لَا يَخْوِيهِ مِقْدَارُ
مقسومة في شهور العمام تحمل لي أقساطها كلّ شهرٍ وهي إدرارُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على أشهر السنة أقساطاً يعيش بها شهريّاً. وهذا سقوط ظاهر في القول والعمل إلى مرتبة التسوّل.

وقد ظلّ شعراء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يقلّدون الشعر القديم ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميداناً يرتعون فيه. فهذا هو البارودي يعيد للمديح أسلوبه المتين ووجهه الأصيل في مدح الخديوي، ثم يسير حافظ إبراهيم على منوال القدماء في نصرة الملوك للدين ورفعة الإسلام وتقليد الخلفاء الراشدين لعلّ الإسلام يستعيد مكانته ويرتفع لواؤه في كلّ جانب. ثم لا يلبث أحمد شوقي أن يحمل لواء المديح في هذا العصر، فيمتدح العظماء لعكوفهم على الدين ونصرتهم للإسلام، فهو كشعرائنا القدماء سواء بسواء. ولكنّ شوقي لا يقف عند هذه الحدود بل يعود إلى ماضي مصر فيمتدح ملوكها القدماء وينتقل إلى ملوك مصر المعاصرين.

الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو غياث بن غوث التغلبيّ (١٩ هـ / ٦٤٠ م - ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشّام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحية، واتّصل بالأمويين، فكان شاعرهم.

وممدوحه هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ (٢٦ هـ / ٦٤٦ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م). من أعظم الخلفاء ودهاتهم، وهو أوّل من عربّ الدواوين، وأوّل من نقش بالعربية على الدراهم. نشأ في المدينة، وتوفّي بدمشق.

★ ★ ★

إلى أمرىء لا تعدّينا نسوافلئنا أظفّره الله فليهنئى لسه الظفّر^(١)
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر^(٢)
وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشر^(٣)

(١) تعدّينا: تفوتنا. نوافله: عطاياه.

(٢) الغمر: الماء الغزير. الميمون طائره: كناية عن حسن الحظ.

(٣) جاشت: هاجت. حوالبه: أمواجه. العشر: نوع من الشجر.

وَدَعْدَعَتُهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَأَضْطَرَبَتِ
 مُسْحَنِفِرٌ مِّنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ
 يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ
 مُفْتَرِشٌ كَأَفْرِاشِ اللَّيْلِ كَلْكَلُهُ
 مُقَدَّمٌ مَّائِثِي أَلْفٍ لِمَنْزِلِهِ
 يَغْشَى الْقَنَاطِرَ يَنْبِيهَا وَيَهْدِمُهَا
 حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ
 وَتَسْتَيِّنَ لِأَقْسَامِ ضَلَالَتِهِمْ
 ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِأَنْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ
 فِي تَبَعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا
 تَعْلُو الْهَضَابَ وَحَلُّوا فِي أُرُومَتِهَا
 فَوْقَ الْجَاجِيٍّ مِنْ آذِيهِ غُدْرٌ (١)
 مِنْهَا أَكَايِفٌ فِيهَا ذُونُهُ زَوْرٌ (٢)
 وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهَرُ (٣)
 لِوَقْعَةٍ كَسَائِنٍ فِيهَا لَهُ جَزْرٌ (٤)
 مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِسْنٌ وَلَا بَشَرٌ
 مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرَّايَاتُ وَالْقَتَرُ (٥)
 وَبِالْثَوِيَّةِ لَمْ يَنْبِضْ بِهَا وَتَرٌ (٦)
 وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ (٧)
 كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمَدْخَرٌ (٨)
 مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ (٩)
 أَهْلُ الرِّيَاءِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا (١٠)

- (١) دَعْدَعَتُهُ: حركته بعنف. الجَاجِيُّ: ج «جوجؤ»، وهو الصدر. الأذِي: الموج المرتفع.
- (٢) مسْحَنِفِرٌ: سريع. الأَكَايِفُ: المرتفعات. الزور: الاعوجاج.
- (٣) أجهر: أعظم. يجتهر: يستعظم.
- (٤) الكلكل: الصدر. الوقعة: المعركة. جزر: ما استبيح ذبحه.
- (٥) مسوِّمٌ: فيه علامة مميزة. القتر: الغبار.
- (٦) الطفّ والثوية: موضعان قرب الكوفة. لم ينبض بها وتر: كناية عن عدم استعمال القسي ورمي السهام.
- (٧) صعر: كبرياء.
- (٨) النقمة: البلاء الحسن. المدخر: ما يخبأ للأعداء من بطش وغيره.
- (٩) النبعة: نوع من الشجر. يعصبون بها: يلتفون حولها. يوازي: يساوي.
- (١٠) الأرومة: الأصل. الرِّياء: العظمة والشرف.

حُشِدًا عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَى أَنْفًا (١) إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا (١)
 أَعْطَاهُمْ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ (٢) لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرٌ (٢)
 لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَةً (٣) وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا (٣)
 شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ (٤) وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدِرُوا (٤)
 لَا يَسْتَقِيلُ ذَوْوُ الْأَضْغَانِ حَرَبَهُمْ (٥) وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَسْرٌ (٥)
 هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا (٦) قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا (٦)
 بَنِي أُمِّيَّةٍ نَعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةً تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَسَدْرٌ.

★ ★ ★

-
- (١) حشد: متأهبون. عيافو: كارهو. الخنى: الذل. أنف: مترفعون عن الدنيا.
 (٢) الجد: الحظ.
 (٣) لم ياشروا: لم يبطروا. موالية: أصحابه أو أهله.
 (٤) شمس العداوة: أشداء. يستقاد لهم: يخضع لهم. أحلاما: عقلا.
 (٥) ذوو الأضغان: أصحاب الحقد، أي الأعداء. خور: ضعف.
 (٦) العافين: الفقراء.

جرير في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو جرير بن عطية اليربوعي (٦٤٠ م / ٢٨ هـ - ٧٢٨ م / ١١٠ هـ).
أشعر أهل عصره. عاش عمره يتبادل الهجاء وشعراء زمانه، فلم يثبت أمامه غير
الفرزدق والأخطل. ورغم شهرته بالهجاء، حتى عدّ أهجى شعراء العربية، فهو
من أغزل الناس شعراً. وفيما يلي نموذج من شعره المدحي.

وأما الممدوح فقد سبق التعريف به منذ قليل.

★ ★ ★

رَأَيْتَ الْمُرْدِينَ ذَوِي لِقَاحٍ ^(١)	تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ
بِأَنْفَاسٍ مِنْ الشَّبِيمِ الْقِرَاحِ ^(٢)	تُعَلِّلُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَيْنَهُمَا
أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِيَا حِي ^(٣)	سَأَمْتَا حُ الْبُحُورَ فَجَبَّيْنِي
وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ	ثَقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَكَ شَرِيكَ
بَسْتَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَا حِ ^(٤)	أَغْنِنِي يَا قَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي
زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِيَا حِي	فِيَانِي قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا

(١) أم حزرة: زوج جرير. الموردين: أي أصحاب الابل التي يوردونها الماء. اللقاح: جمع لقوح: الناقة الحلوب.

(٢) تعلل: تشغل وتلهي. ساغبة: جائعة. الشبم: البارد من الماء. القراح: الصافي.

(٣) متح الماء: استقاه واستخرجه من البئر، والمراد العطاء الذي يناله من الخليفة.

(٤) السبب: العطاء. الارتياح والأريحية: الاهتزاز للعطاء.

سَأشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيْشِي	وَأُنْبِتُ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي (١)
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا	وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ (٢)
وَقَوْمٍ قَدْ سَمَوْتُ لَهُمْ فِدَائُوا	بِذَهْمٍ فِي مَلْمَلَمَةٍ رَدَاحٍ (٣)
أَبَحْتُ حِمَى تِهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ	وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ (٤)
لَكُمْ شُمُّ الْجِبَالِ مِنَ الرَّوَاسِي	وَأَعْظَمُ سَيْلٍ مُعْتَلِجِ الْبَطَاحِ (٥)
دَعَوْتُ الْمَلْحِدِينَ أَبَا خُبَيْبٍ	جَمَاحًا هَلْ شَفَيْتَ مِنَ الْجِمَاحِ (٦)
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هُبَيْرِيًّا	أَلْفًا الْعَيْصَ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي (٧)
فَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ	بِعَشَّاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي (٨)
رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا	وَبَيَّنَّتِ الْمِرَاضُ مِنَ الصَّحَاحِ (٩)

★ ★ ★

- (١) القوادم: جمع قادمة: الريش في مقدم الجناح، وهو كبار الريش، الخوافي ضدها، والمراد سأشكر إن أكرمتني وأعززتني.
- (٢) المطايا: جمع مطية. الراح: جمع راحة. بطن الكف.
- (٣) سموت لهم: خرجت إليهم محاربا. دانوا: خضعوا. جيش ذهم: كثير. كتيبة ململمة: كثيرة مجتمعة. رداح: ثقيلة فخمة.
- (٤) أبحت: حللت. الحمى: ما يحمله الانسان ويمنعه.
- (٥) شم الجبال: أعاليها. اعتلجت الأرض: طال نبتها، والأمواج: التطمط. البطاح: جمع بطحاء: مسيل واسع فيه حصى دقيق. يشير إلى أصالة نسبه وعظم سلطانه.
- (٦) الملحدي: المائل عن الدين الطاعن فيه. أبو خبيب: كنية عبدالله بن الزبير الخارج على بني أمية. جماحا: نافرين، والجماح: العناد والخلاف.
- (٧) الهبرزي: الأسد. ألف: كثير ملتف. العيص: الشجر الكثير، والمراد الأصيل، النواحي: البعداء. أي وجدوك قويا كريما الأصيل.
- (٨) العشات: جمع العشة: الشجرة اللثيمة المنبت الدقيقة القضبان الضواحي: جمع الضاحية: الشجرة البادية العيدان ولا ورق عليها.
- (٩) البصيرة: العبرة والفطنة. المراض: جمع مريض: الباطل والمعوج وضده الصحيح.

أبو نواس في مدح هارون الرشيد

الشاعر هو الحسن بن هانئ (٧٦٢ م / ١٤٥ هـ - ٨١٣ م / ١٩٨ هـ). نشأ في البصرة يعباً من العلوم بذكاء متوقّداً، ويتلمذ لبعض المجان والخُلعاء. عاش في السكر واللهو والمجون. هو شاعر الخمرة بلا منازع، ومع ذلك قال الكثير من الغزل. والأثنى والخمرة متلازمان.

والممدوح هو هارون الرشيد ابن محمد (المهديّ) ابن المنصور العبّاسيّ (١٤٩ هـ / ٧٦٦ م - ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) خامس خلفاء الدولة العبّاسيّة في العراق. وأشهرهم. وكان عالماً بالأدب، وأخبار العرب، والحديث، والفقه، شجاعاً، كثير الغزوات، حازماً، كريماً، لقب بجبار بني العبّاس، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على باب من العلماء، والشعراء، والكتّاب، والندماء.

★ ★ ★

حَيِّ الدَيْسَارَ، إِذِ الزَّمَانُ زَمَانٌ وَإِذِ الشَّبَاكُ لَنَا حَرَى وَمَعَانٌ^(١)
يَا حَبْنَدَا سَفَوَانُ مِمنْ مُتْرَبِعٍ وَلَرَبِّمَّا جَمَعَ الهَوَى سَفَوَانُ^(٢)

(١) حَرَى: كَعَلَى هو حراء جبل بمكة فيه غار تَمَحَّتْ فيه النبي (ﷺ). ومعان: موضع بطريق حاج الشام. والشبّاك: جمع شبكة والمعنى أنّ في حري ومعان شبّاك الهوى نُصِيْبِنَا لَنَا لِيَصْطَلِدُنَا.
(٢) سفوان: موضع بالبصرة. المُتْرَبِعُ: اسم للمكان الذي ينزله القوم أيام الربيع.

وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدَّيَّارِ مُسَلِّمًا
 إِنَّا نَسَبْنَا، وَالْمَنَاسِبُ ظَنَّةٌ
 لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا
 سَبَطٌ مَشَافِرُهَا، دَقِيقٌ خَطْمُهَا
 وَاحْتَازَهَا لَوْنٌ جَسْرِي فِي جِلْدِهَا
 وَإِلَى أَبِي الْأَمْنَاءِ هَارُونَ الَّذِي
 مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالَهُ
 مَا تَنْطَوِي عَنْهُ الْقُلُوبُ بِفَجْرَةٍ
 فَيَنْظِلُ لِاسْتِنْبَائِهِ، وَكَأَنَّهُ
 هَارُونُ أَلْفْنَا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ
 فِي كُلِّ عَامٍ غَسْرَةٌ وَوِفَادَةٌ

فَلْيَغْيِرِ دَارِ أُمَيْمَةَ الْهَجْرَانُ
 حَتَّى رُمِيَتْ بِنَا وَأَنْتِ حَصَانٌ^(١)
 وَخَدَّتْ بِي الشَّدْيِيَّةُ الْمِذْعَانُ^(٢)
 وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ^(٣)
 يَقُقُّ كَقِرطَاسِ الْوَلِيدِ، هِجَانُ^(٤)
 يَخِيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانَ^(٥)
 فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانٌ
 إِلَّا يُكَلِّمُهُ بِهَا اللَّحْظَانُ^(٦)
 عَيْنٌ عَلَى مَا عَيَّبَ الْكِتْمَانَ
 مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانَ
 تَثَبَّتْ بَيْنَ نَوَاهُمَا الْأَقْرَانَ^(٧)

- (١) نسبنا: شئنا وتغرنا. الظنة: التهمة. الحصان: المرأة العفيفة أو المتزوجة.
 (٢) نزعت عن الغواية: تركتها وابتعدت عنها. وخذت: سارت. الشديية: الناقة منسوبة إلى موضع باليمن. المذعن: المطيعة الخاضعة.
 (٣) السبط: المسترسل ضد الجعد. المشافر للابل كالشفاه للإنسان. الخطم: الأنف؛ وإنما شبه خلقها بالبنيان لضخامتها وارتفاعها.
 (٤) احتازها: ضمها وجمعها والمقصود شملها. يقق: شديد البياض. هجان: الهجان الخالص من كل شيء.
 (٥) الحيوان: الحياة. قال تعالى: وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون. والمراد بالسماء المظر.
 (٦) بفجرة: بفجور وخيانة. اللحظان: مصدر لحظ أي نظر بمؤخر عينيه، وهو أشد من الشرر.
 (٧) الوفادة: مصدر وفد. وتثبتت: تنقطع. والنوى: الوجه يذهب فيه. والأقران: ج قرآن، والقرآن للأنسان مثله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال.

حَجَّ وَعَزَوْ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكَرَى
 يَرْمِي بَهْنَ نِيَاطَ كُلِّ تَنُوفَةٍ
 حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبَالَ الصَّفَا
 لَا غَرَوْ يَنْفِرُجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ
 يَصَلَّى الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَّةٍ
 أَلْفَتْ مُنَادِمَةَ الدَّمَاءِ سَيُوفُهُ
 حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً
 حَذَرَ أَمْرِيءَ قُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَا
 مَتَبَرَّجُ الْمَعْرُوفِ عَرِيضُ النَّدَى
 لِلْجُودِ مِنْ كِلْتَا يَدَيْهِ مُحَرَّكُ
 بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَحْدَانُ^(١)
 فِي اللَّهِ رَحَّالٌ بِهَا، ظَعَّانُ^(٢)
 حَنَّ الْحَطِيمُ، وَأَطَّتِ الْأَرْكَانُ^(٣)
 إِنَّ التَّقِيَّيَ مُسَدَّدَةٌ وَمُعَانُ
 لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الْأَكْنَانَ^(٤)
 فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانَ^(٥)
 لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانَ^(٦)
 كَالدَّهْرِ فِيهِ شَرَّاسَةٌ وَلِسَانُ
 حَصِيرٌ بَلَا مِنْهُ فَمَّ وَلِسَانُ^(٧)
 لَا يَسْتَطِيعُ بِلِسْوَعَةِ الْإِسْكَانُ

- (١) اليعملات: النياق السريعة. الوحدان: نوع من سيرها.
- (٢) النياط: الفؤاد. والتنوفة: المفازة ظعان: مبالغة من طاعن أي مسافر.
- (٣) أقبال الصفا: الأقبال جمع قبال وهو من الجبل سَفَحَهُ. الحطيم: ما بين الركن وزمزم والمقام. وأطت الأركان: صوتت.
- (٤) يصلى الهجير: يكابده، والهجير شدة الحر. والأديم: الجلد. الأكنان: جمع كين وهو الستر والبيت.
- (٥) أجفان السيوف: غمودها.
- (٦) قوله لم يك صورة أي لم يتشكّل بعدُ والجملة من الذي، وهذا البيت في المبالغة كقوله: وأخفت أهمل الشرك حتى أنه لتخافسك التطفأ التي لم تُخلق متبرج المعروف: أي مُظهر له وهو مُدِلٌّ به كما تبرج المرأة باظهار زينتها عَجَبًا وإدلالًا. وقوله: عريض الندى: أي مُعترضٌ به لطلابِه. حَصِيرٌ بلا: أي لا ينطق «لا» في كلام.

وقال يُعزِّي الأمين^(١) ويمدحُه:

نُعزِّي أميرَ المؤمنينَ مُحَمَّدًا على خَيْرِ مَنِيَّتِ غَيِّتُهُ المَقَابِرُ
وإنَّ أميرَ المؤمنينَ مُحَمَّدًا لِرَابِطِ جَاشٍ لِلخُطُوبِ وَصَابِرُ
زَهَتْ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَسِرَّةَ مُلْكٍ، وَاسْتَقَرَّتْ مَنَابِرُ
فَلَا زِلْتَ للإِسْلَامِ عِزًّا وَنَاصِرًا كَمَا أَنْتَ للإِسْلَامِ عِزٌّ وَنَاصِرُ
وَلَا زِلْتَ مَرْعِيًّا بِعَيْنِ حَفِظَظَةٍ مَنَ اللهُ لَا تَسْطُو عَلَيْكَ المَقَادِرُ
تَسُوسُ أُمُورَ النَّاسِ تَسْعِينَ حِجَّةً وَهَدْيُكَ مُحَمَّدٌ وَعِرْضُكَ وَافِرُ

(١) هو الخليفة العباسي محمد بن هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٧ م - ١٩٨ هـ / ٨١٣ م). كان أبيض، طويلًا، سمينًا، جميل الصورة، شجاعًا، أديبًا، رقيق الشعر، مكثيرًا من إنفاق الأموال، سيء التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو، ومجالسة الندماء.

أبو تمام في مدح المعتصم

هو حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م). شاعر مجيد وأحد أمراء البيان. كان أسمر طويلًا، فصيحًا، حلو اللسان، يحفظ أربعة آلاف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. له تصانيف منها: «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة».

والممدوح هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (١٧٩ هـ / ٧٩٥ م - ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م). خليفة من أعظم الخلفاء العباسيين. بنى مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده، وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى، من الخلفاء، ف قيل: «المعتصم بالله»، وكان لئن العريكة، رضي الخلق، اتسع ملكه جدًا.

أما مناسبة القصيدة، فقد هاجم امبراطور الروم بلدتي «زبطرة» و«مُلطية» فاحتلها، وأعمل فيهما القتل والسبي. ويروى أن عريئة من السبايا صاحت مستغيثة: «وا مُعتصماه»، فبلغ الخبر المعتصم، فقال: «لبيك لبيك»، فهاجم «عمورية» واحتلها، واستباحها هدمًا، وإحراقًا، وقتلًا، وستيًا، فقال أبو تمام في المناسبة:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتبِ في حدِّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعِبِ (١)

(١) المقصود بالكتب في هذا البيت كتب السحر والتنجيم التي زعم أصحابها بأن عمورية لن تفتح في الوقت الذي غزاها المعتصم.

فَتَحُ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
 يَا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةَ انصَرَفَتْ
 أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صُعُودِ
 لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
 غَادَرْتَ فِيهَا بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى
 حَتَّى كَانَ جَلَابِيبَ الدَّجَى رَغِبْتَ
 ضَوْءَ مِنَ النَّارِ وَالظُّلْمَاءِ عَاكِفَةً
 فَالشمسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلْتَ
 تَسْدِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ
 لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ
 لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا
 رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا
 لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبْطَرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ

نَفَلَمُ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثَرُ مِنَ الْخُطْبِ
 عَنكَ الْمَنَى حَقْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلْبِ (١)
 وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشَّرْكِ فِي صَبَبِ (٢)
 لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالخَشْبِ
 يَشْلَهُ وَسَطَهَا صَبَحَ مِنَ اللَّهَبِ (٣)
 عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ (٤)
 وَظُلْمَةً مِنْ دُخَانٍ فِي ضَحَى شَجِبِ
 وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ (٥)
 لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَقِبِ
 إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنْ الرُّعْبِ
 مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ (٦)
 وَلَوْ رَمَى بِكَ عَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِيبِ ...
 كَأَسَ الْكُرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ (٧)

(١) حَقْلًا: مليئة. معسولة الحلب: حليها مخلوط بالعسل.

(٢) جَدًا: حظ. صعد: علو وارتفاع. صبب: انخفاض.

(٣) بهيم الليل: أسود. يشله: يطرده.

(٤) جلابيب: ج «جلباب» وهو الثوب الفضفاض، وهنا كناية عن شدة الظلام. رغبت عن الشيء: نركته.

(٥) وجبت الشمس: غابت.

(٦) الجحفل: الجيش الكثير. الوعى: الحرب. لجب: كثير ذو ضجة.

(٧) زبطريًا: نسبة إلى زبطرة، وهنا إشارة إلى المرأة التي صاحت: «وامعتصماه» عندما ساقها الأعداء إلى الأسر بعد معذبها. هرقت: صببت. الكرى: النوم. الخرد: ج «خريدة» وهي الفتاة العذراء. العرب: ج عروب وهي المرأة المحبة لزوجها.

أَجَبْتَهُ مُعَلِّناً بِالسَّيْفِ مُنْصَلِّتَا
 تَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ
 وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِي مَأْزِقِ لَجِبِ
 كَمْ نَيْلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرِ
 كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْتَابِ الرَّقَابِ بِهَا
 خَلِيفَةَ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
 بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
 إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمِ
 قَبِينِ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا
 أَبَقْتَ بِنِي الْأَصْفَرِ الْمُصْفَرِّ كَأَسْمِهِمْ

وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجَسِبِ (١)
 جَلُودَهُمْ قَبْلَ نَضَجِ التِّينِ وَالْعِنَبِ (٢)
 تَجْتَوِ الرَّجَالَ بِهِ صُغْرًا عَلَى الرَّكَبِ (٣)
 وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضِ شَنِبِ (٤)
 إِلَى الْمُخَدَّرَةِ الْعَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ (٥)
 جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
 تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنْ التَّعَسِبِ
 مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامِ غَيْرِ مُنْقَضِيبِ (٦)
 وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ (٧)
 صَفَرَ الْوُجُوهُ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ (٨)

★ ★ ★

-
- (١) منصلتا: سلولا.
 (٢) نضج التين والعنب: إشارة إلى الصيف.
 (٣) المأزق: الطريق الصعبة والضيقة. صغرا: متضايقة.
 (٤) سناها: بريقها. عارض شنب: جميل الوجه.
 (٥) المخدرة: الفتاة المصونة في خدرها.
 (٦) صروف الدهر: مصائبه. الرحم: صلة القرابة. منقضب: مقطوع.
 (٧) أيام بدر: إشارة إلى المعركة التي خاضها الرسول (ﷺ) ضد قريش وانتصر فيها.
 (٨) بنو الأصفر: كناية عن الروم. جلت: رفعت وأعزت.

أبو تمام في مدح المعتضد بالله

سبق التعريف بالشاعر منذ قليل، وأما الممدوح فهو الخليفة العباسي أحمد بن طلحة بن جعفر (المتوكل) (٢٤٢ هـ / ٨٥٧ م - ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م). أظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب، وهو في سن الشباب. كان شجاعاً، ذا عزم، مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته، ويكفون عن الظلم خوفاً منه، وكان عارفاً بالأدب، موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدة. قال ابن دحية: «هو أحد رجال بني العباس الخمسة، أقام العدل، وبذل المال، وأصلح الحال». وفيما يلي أبيات من قصيدة قالها أبو تمام في مدحه.

* * *

إلى قُطْبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَوْ بِفَضْلِهِ مَدَحْتُ بِنِي الدُّنْيَا كَفْتَهُمْ فَضَائِلُهُ
مَنْ أَلْبَسُ والمَعْرُوفُ والجُودُ والتُّقَى عِيَالٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُنَّ شَمَائِلُهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أْتَيْتَهُ فَلَجَّتْهُ المَعْرُوفُ والجُودُ سَاحِلُهُ
تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاها لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيْتَقِ اللهُ سَائِلُهُ

عليّ بن الجهم في مدح المتوكل العباسيّ

هو عليّ بن الجهم بن بدر من لؤي بن غالب (٠٠٠ - ٢٤٩هـ / ٨٦٣م) أديب من أهل بغداد. خصّ بالمتوكل العباسيّ ومدحه، ثمّ غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان. له ديوان شعر.

أما المتوكل العباسيّ، فهو الخليفة جعفر بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد. كان جوادًا محبًا للعمران، من آثاره «المتوكلية» ببغداد. كثرت الزلازل في أيامه فعمر بعض ما خربت. كان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر، ويأمر بالفرش الأحمر، ولا يرى الورد إلا في مجلسه، وكان يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكلّ منا أولى بصاحبه.

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة ألقاها عليّ بن الجهم في مدحه.

وللشّعْرِ أَتْبَاعٌ كَثِيرٌ وَلَسْمُ أَكُنْ	لَهُ تَابِعًا فِي حَالِ عُسْرِ وَلَا يُسْرِ
وَلَكِنَّ إِحْسَانَ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ	دَعَانِي إِلَى مَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ الشّعْرِ
فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَلَوْ جَلَّ عَنْ شُكْرِ الصَّنِيعَةِ مُنِعِمٌ	لَجَلَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الشُّكْرِ
وَمَنْ خَالَ أَنَّ الْبَحْرَ وَالْقَطْرَ أَشْبَهَا	نَدَاهُ، فَقَدْ أَثْنَى عَلَى الْبَحْرِ وَالْقَطْرِ.

★ ★ ★

البحترى في مدح المتوكل على الله

الشاعر هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائسى (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م - ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م) شاعر كبير، وُصف شعره بأنه «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبى، وأبو تمام، والبحتري. سئل أبو العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبى وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، اتصل بالمتوكل العباسي، ومدحه، وفيما يلي مقتطفات من قصيدة قالها في مدحه:

أَبْرَ عَلَيَّ الْأَنْوَاءَ نَائِلِكَ الْغَمْرُ وَبِنْتَ بِفَخْرٍ مَا يُشَاكِلُهُ فَخْرُ
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَيْ اللَّهُ أَنْ تَسْمُوَ إِلَى قَدْرِهِ قَدْرُ
تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بَعْدَ ذَلِكَ فَاغْتَدْتِ وَأَفَاقَهَا بَيْضٌ وَأَكْنَافُهَا خُضْرُ
هَنِيئًا لِأَهْلِ الشَّامِ إِنَّكَ سَائِرُ إِلَيْهِمْ مَسِيرَ الْقَطْرِ يَتَّبَعُهُ الْقَطْرُ
تَفِيضُ كَمَا فَاضَ الْغَمَامُ عَلَيْهِمْ وَتَطْلُعُ فِيهِمْ مِثْلَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ

وقال يمدحه من قصيدة

أَيُّهَا الْغَائِبُ الَّذِي لَيْسَ يَرْضَى نَمُ هَنِيئًا فَلَسْتُ أَطْعَمُ غَمَضًا

إِنَّ لِي مِنْ هَوَاكَ وَجِدًا قَدِيرَ اسْتَهْ
 فَجَنُونِي فِي عِبْرَةٍ لَيْسَ تَرْقَا
 رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا
 هُوَ أَنْدَى مِنَ الْعَمَامِ وَأَوْفَى
 يَتَوَخَّسِي الْإِخْتَانِ قَسْوَلًا وَفِعْلًا
 يَنْتَ بِالْفَضْلِ وَالْعُلُوِّ فَاصْتَبَحْ
 وَأَرَى الْمَجْدَ يَبْسُ عَارِقَةَ مِنْدُ

لَمَكَ تَوْمِي وَمَضْجِعًا قَدْ أَقْضَا (١)
 وَفُؤَادِي فِي لَوْعَةٍ مَا تَقْضَى (٢)
 يَسْعُ الرَّاغِبِينَ طَوْلًا وَعَرْضًا
 وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى
 وَيُطِيعُ الْإِلْسَةَ بَسْطًا وَقَبْضًا
 سَمَاءَ وَأَصْبَحَ النَّاسُ أَرْضًا
 لَكَ تُرْجَى وَعَزْمَةٌ مِنْكَ تُمَضَى

(١) ختن
 (٢) أي تنقضي.

حافظ إبراهيم في مدح عمر بن الخطاب

الشاعر هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م) شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها نيقاً وربع قرن. لقب بـ «شاعر النيل». كان قويّ الحافظة راوية، سميراً، مرحّاً، حاضر النكتة، جهوريّ الصوت، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي يؤسه ورخائه، مهذب النفس، وفي شعره إبداع في الصّوغ امتاز به عن أكثر أقرانه.

وأما الممدوح فهو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشيّ (٤٠ ق هـ / ٥٨٤ م - ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من نُقّب بأمر المؤمنين، الصحابيّ الجليل، الشجاع الحازم. صاحب الفتوحات، يُضرب بعذله المثل. كان في الجاهليّة من أبطال قريش وأشرفهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي (ﷺ) يدعو ربّه أن يعزّ الإسلام بأحدهما.

وفيما يلي مقتطفات قالها حافظ إبراهيم في مدح عمر، أنشدها مساء الجمعة في ٨ فبراير (شباط) سنة ١٩١٨، نقتطف منها ما يلي:

حَسْبُ الْقَوَافِي وَحَسْبِي حَيْسَنَ أَلْتَقِيهَا أَنِّي إِلَى سَاحَةِ الْفَارُوقِ (١) أَهْدِيهَا
لَاهُمْ (٢) هَبْ لِي بَيَانًا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى قَضَاءِ حُقُوقِ نَامِ قَاضِيهَا

(١) الفاروق: لقب أطلقه النبي (ﷺ) على عمر، لأنه فرّق بين الحق والباطل.

(٢) لا همّ: أي اللّهمّ.

إسلام عمّر

رَأَيْتَ فِي الدِّينِ آرَاءَ مُوَفَّقَةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ قُرْآنًا يُزَكِّيهَا (١)
وَكُنْتَ أَوْلَ مَنْ قَسَرْتُ بِصُحْبَتِهِ عَيْنُ الْحَنِيفَةِ (٢)، وَأَجْتَازَتْ أَمَانِيهَا

عمّر وبيعة أبي بكر (٣)

وَمَوْقِفِ لَكَ بَعْدَ الْمُصْطَفَى افْتَرَقْتُ فِيهِ الصَّحَابَةُ لَمَّا غَابَ هَادِيهَا (٤)
بَايَعْتَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ فَبَايَعَهُ عَلَى الْخِلَافَةِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
وَأَطْفَيْتُ فِتْنَةَ لَوْلَاكَ لِاسْتَعْرَتِ (٥) بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَأَنْسَابَتْ أَفَاعِيهَا
بَاتَ النَّبِيُّ مُسْجَى (٦) فِي حَظِيرَتِهِ وَأَنْتَ مُسْتَعِرُ الْأَحْشَاءِ دَامِيهَا
تَهِيمُ بَيْنَ عَجِيجِ النَّاسِ فِي دَهْشِ مِنْ نَبَأَةٍ قَدْ سَرَى فِي الْأَرْضِ سَادِيهَا (٧)

(١) يزكّيها: يُعزّزها ويؤيّدّها. ويُشير الشاعر بهذا البيت إلى ما كان من عمر حين كان يرى الرأي، فينزل به القرآن، حتى موافقاته نبيّاً وعشرين آية، منها آية التحريم في الخمر، لما قال: «اللهم، بين لنا في الخمر بياناً شافياً»، ومنها آية الاستيذان في الدخول، وذلك أنّه دخل عليه غلامه، وكان نائماً، فقال: «اللهم حرّم الدخول»، فنزلت آية الاستيذان... الخ.

(٢) الحنيفة: الإسلام.

(٣) يُشير إلى اختلاف المسلمين في يوم الشقيفة بعد موت النبي (ﷺ)، وما كاد يلحقهم من انقسام الكلمة وتفترق الشمل في اختيار خليفة لهم، وإلى فضل عمر بن الخطاب، في مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة، فالتأم شمل المسلمين.

(٤) غاب هاديها: مات نبيّها.

(٥) لاستعرت: لاشتعلت وتأججت.

(٦) مسجى الميت: مدّ عليه ثوبه، وغطّي به.

(٧) تهيم: تذهب دون أن تدري إلى أين، عجيج: صياح. نبأة: صوت خفي. ويُشير الشاعر بهذا البيت والأبيات التالية إلى ما تولى عمّر والناس من الدهش بوفاة النبي (ﷺ)، حتى إن عمّر هدّد بقطع رأس كل من يقول: «مات محمّد»، حتى جاءهم أبو بكر، فذكّروهم بقوله =

تَصِيحُ؛ مَنْ قَالَ نَفْسُ الْمُصْطَفَى قُبِضَتْ
 أَنْسَاكَ حُبَّكَ طه^(٢) أَنَّهُ بَشَرٌ
 وَأَنَّهُ وَاوَدَّ، لَا بُدَّ، مَسُورِدَةٌ
 نَسِيَتْ فِي حَقِّ طه آيَةٌ نَزَلَتْ

عمر وعلي^(٤)

وَقَوْلِيَّةٍ لِعَلِيِّ قَالَهَا عَمَرٌ
 حَرَقْتُ دَارَكَ لَا أَبْقِي عَلَيْكَ بِهَا
 مَا كَانَ غَيْرُ أَبِي حَفْصٍ يَفُوهُ بِهَا
 كِلَاهُمَا فِي سَبِيلِ الْحَقِّ عَزَمْتُهُ
 أَكْرِمُ بِسَامِعِيهَا، أَعْظِمُ بِمُلْقِيهَا
 إِنْ لَمْ تُبَايِعْ وَبِنْتُ الْمُصْطَفَى فِيهَا
 أَمَامَ فَارِسِ عَدْنَانَ وَحَامِيهَا^(٥)
 لَا تَنْتَنِي أَوْ يَكُونُ الْحَقُّ ثَانِيهَا

= نعالى: «وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل (آل عمران: ١٤٤)، فعاد عمر والناسُ معه إلى صوابهم.

(١) المصطفى: النبي محمد (ﷺ). هامته: أعلى رأسه. وانظر المقصود من هذا البيت في الهامش السابق.

(٢) طه: النبي محمد (ﷺ).

(٣) يُشير إلى الآية الكريمة: «وما محمدٌ إلا رسولٌ خلت من قبله الرسل» (آل عمران: ١٤٤).

(٤) يُشير الشاعر بالأبيات الأربعة التالية إلى امتناع عليّ عن البيعة لأبي بكر يوم السقيفة، وتهديد عمر له بإحراق بيته إذا استمرّ علي امتناعه، وكانت فيه فاطمة بنت الرسول (ﷺ) زوجة عليّ.

(٥) أبو حفص: كنية عمر. فارس عدنان: لقب علي بن أبي طالب.

عمر وجبله بن الأيهم^(١) .

كَمْ خِفْتَ فِي اللَّهِ مَضْعُوقًا دَعَاكَ بِهِ
وَفِي حَدِيثِ قَتَى غَسَانَ مَوْعِظَةً
فَمَا الْقَوِيُّ قَوِيًّا رَغَمَ عِزَّتِهِ
وَمَا الضَّعِيفُ ضَعِيفًا بَعْدَ حُجَّتِهِ
وَكَمْ أَخَفْتَ قَوِيًّا يَنْشِي تَيْهًا^(٢)
لِكُلِّ ذِي نَعْرَةٍ يَأْبَى تَنَاسِيهَا^(٣)
عِنْدَ الْخُصُومَةِ وَالْفَارُوقُ قَاضِيهَا
وَإِنْ تَخَاصَمَ وَالِيهَا وَرَاعِيهَا

عَمْرٌ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ^(٤)

سَلَّ قَاهِرَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ : هَلْ شَفَعْتُ
عَزَا فَأَبْلَى وَخَيْلُ اللَّهِ قَدْ عَقِدَتْ
يَرْمِي الْأَعَادِي بِأَرَاءِ مُسَدَّدَةٍ
مَا وَقَعَ الرُّومَ إِلَّا قَرَّ قَارِحُهَا
لَهُ الْفُتُوحُ، وَهَلْ أَغْنَى تَوَالِيهَا^(٥)
بِالْيُمْنِ وَالنَّصْرِ وَالْبُشْرَى نَوَاصِيهَا^(٦)
وَبِالْفَوَارِسِ قَدْ سَأَلَتْ مَذَاكِهَا^(٧)
وَلَا رَمَى الْفُرْسَ إِلَّا طَاشَ رَامِيهَا

(١) كان جبله بن الأيهم أحد أبناء الفساسة ملوك الشام، فاعتنق الإسلام. وبينما هو يطوف إذ وطئ أعرابي ثوبه، فلطمه جبله وهشم أنفه، فشكاه الأعرابي إلى عَمْرٍ، فأمر أن يُقتَصَرَ منه، فهرب جبله إلى القسطنطينية، وعاد إلى النصرانية.

(٢) مَضْعُوقًا: ضعيفًا، والقياس مُضْعَقًا. ينشئ: يتمايل، ويتبَخَّر. تَيْهًا: كبيرًا.

(٣) قَتَى غَسَانَ: المقصود جبله بن الأيهم. نَعْرَةٌ: بفتح العين، وسكنت للضرورة الشعرية، ومعناه الخيلاء والتكبر.

(٤) يُشير الشاعر في الأبيات التالية إلى قصة عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد، وإسناده قيادة الجيش العامة إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان خالد، آنذاك، في إبان انتصاراته، وقبل أمر عَمْرٍ، وبقي طوال حياته مُطيعًا له، وقبل موته أوصاه بأولاده.

(٥) قاهر القرس والرومان هو خالد بن الوليد.

(٦) النواصي: جمع ناصية، وهي مقدمة الرأس.

(٧) المذاكي: الخيل التي اكتملت قوتها. وانسيال المذاكي كناية عن انتشارها وكثرتها تشبيهًا بانسيال الماء.

ولم يَجْزْ بِلُدَّةٍ إِلَّا سَمِعْتَ بِهَا
عَشْرُونَ مَوْعِدَةً مَرَّتْ مُحَجَّلَةً
وَخَالِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُوقِدُهَا
أَتَاهُ أَمْرٌ أَبِي حَفْصٍ فَقَبَّلَهُ
وَأَسْتَقْبَلَ الْعَزَلَ فِي إِبَانِ سَطْوَتِهِ
أَلْقَى الْقِيَادَ إِلَى الْجِرَاحِ مُمْتَلِئًا
وَأَنْضَمَّ لِلْجُنْدِ يَمْشِي تَحْتَ رَأْيِهِ
وَمَا عَرَفْتُهُ شُكُوكٌ فِي خَلِيفَتِهِ

عمر وابنه عبدالله (٥)

وَمَا وَقَى ابْنُكَ عَبْدُ اللَّهِ أَيْقُنَةً
رَأَيْتَهَا فِي حِمَاهُ وَهِيَ سَارِحَةٌ
فَقُلْتُ: مَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُشِعُّهَا
قَدِ اسْتَعَانَ بِجَاهِي فِي تِجَارَتِهِ
لَمَّا أَطَّلَعْتَ عَلَيْهَا فِي مِرَاعِيهَا (٧)
مِثْلَ الْقُصُورِ قَدِ اهْتَزَّتْ أَعَالِيهَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدِي أَوْ كَانَ يُرْوِيهَا
وَبَاتَ بِاسْمِ أَبِي حَفْصٍ يُنْمِيهَا

(١) مُحَجَّلَةٌ: واضحة، مشرقة بالانتصار فيها.

(٢) صَالِيهَا: يُقَاسِي حَرَّهَا وَشِدَّتَهَا.

(٣) أَبُو حَفْصٍ هُوَ عَمْرُ نَفْسِهِ.

(٤) الْجِرَاحُ هُوَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجِرَاحِ.

(٥) يُشِيرُ الشَّاعِرُ إِلَى مَا يُرْوَى مِنْ أَنَّهُ مَرَّ، يَوْمًا، بِنُوقٍ قَدِ بَدَّتْ عَلَيْهَا آثَارُ النِّعْمَةِ، فَسَأَلَ عَنْ

صَاحِبِهَا، فَقِيلَ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ، فَسَاقَهَا إِلَى بَيْتِ الْعَمَالِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ثَرْوَةَ ابْنِهِ لَا تَفِي لَهَا، وَأَنَّهُ لَوْلَا

جَاهُهُ بَيْنَ النَّاسِ مَا قَدَّرَ عَلَى إِطْعَامِهَا.

(٦) أَيْقُنَةٌ: نِيَاقَةٌ.

رُدُّوا النَّيَاقَ لِيَبْتَ الْمَالِ إِنْ لَسَهُ حَقَّ الزِّيَادَةِ فِيهَا قَبْلَ شَارِيهَا

عمر ورسول كسرى^(١)

وَرَاغَ صَاحِبَ كِسْرَى أَنْ رَأَى عُمَرَ
وَعَهْدُهُ بِمَلُوكِ الْفُرسِ أَنَّ لَهَا
رَأَهُ مُسْتَعْرِقًا فِي نَوْمِهِ، فَرَأَى
فَوْقَ الشَّرَى تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْحِ مُشْتَمِلًا
فَهَانَ فِي عَيْنِهِ مَا كَانَ يُكْبِرُهُ
وَقَالَ قَوْلَهُ حَقٌّ أَصْبَحْتَ مَثَلًا
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ
بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عَطْلًا وَهُوَ رَاعِيهَا^(٢)
سُورًا مِنَ الْجُنْدِ وَالْأَحْرَاسِ يَحْمِيهَا
فِيهِ الْجَلَالَةُ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا
بِبُرْدَةٍ كَادَ طُولُ الْعَهْدِ يُبْلِيهَا^(٣)
مِنَ الْأَكَاسِرِ وَالذُّنْيَا بِأَيْدِيهَا
وَأَصْبَحَ الْجَيْلُ بَعْدَ الْجَيْلٍ يَسْرُوبُهَا:
فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِيرِ الْعَيْنِ هَانِيهَا

مثال من رحمته^(٤)

وَمَنْ رَأَهُ أَمَامَ الْقَيْدِ مُنْبَطِحًا وَالنَّارُ تَأْخُذُ مِنْهُ وَهُوَ يُذَكِّيهَا^(٥)

(١) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يروى من أنه لما جاء رسول كسرى إلى عمر، وجده راقدًا على الرمل، جاعلاً منه وسادة أسند إليها رأسه، فوقف أمامه خاشعًا، وقال عبارته المألوفة: عدلت، يا عمر، وأمنت، فنمت.

(٢) عطلًا: متجردًا من مظاهر الأبهة.

(٣) الدوح: جمع دوحة، وهي الشجرة الكبيرة المتسعة الظل. واشتمل الرجل ثوبه: تلفق به وأداره على جسده.

(٤) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يروى من أن عمر رأى امرأة توقد النار على حصي وماء، تُشغل بذلك أولادها عن طلب الطعام حتى يناموا، فحمل إليها عمر من بيت المال شيئًا من الدقيق، وجلس وساعدها في إشعال النار، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وناموا.

(٥) يذكيها: يشعلها.

وَقَدْ تَحَلَّلَ فِي أَثْنَاءِ لِحْيَتِهِ رَأَى هُنَاكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ
مِنْهَا الدُّخَانَ وَقُوهُ غَابَ فِي فِيهَا (١)
حَالٍ تَرَوُّعٍ لَعَمْرُ اللَّهِ رَائِبَهَا
وَالْعَيْنُ مِنْ خَشْيَةٍ سَأَلَتْ مَأْقِبَهَا

مثال من رجوعه إلى الحق (٢)

وَفِتْيَةٍ وَلِعُوا بِالرَّاحِ فَأَتَّبَدُوا
ظَهَرَتْ حَائِطُهُمْ لَمَّا عَلِمَتْ بِهِمْ
حَتَّى تَبَيَّنَتْهُمْ وَالْخَمْرُ قَدْ أَخَذَتْ
سَقَمَتْ آرَاءَهُمْ فِيهَا فَمَا لَبُّسُوا
وَرُمَتْ تَفْقِيهِهُمْ فِي دِينِهِمْ فَبَاذَا
قَالُوا: مَكَانَكَ قَدْ جِئْنَا بِوَاحِدَةٍ
فَأَتِ الْبُيُوتَ مِنَ الْأَبْوَابِ، يَا عَمْرُ
لَهُمْ مَكَانًا، وَجَدُوا فِي تَعَاطِيهَا
وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ الْأَرْجَاءِ سَاجِيهَا (٣)
تَعَلُّو ذُوَابَةَ سَاقِيهَا وَحَاسِنِيهَا (٤)
أَنْ أَوْسَعُوكَ عَلَى مَا جِئْتَ تَسْفِيهَا (٥)
بِالشَّرْبِ قَدْ بَرَّعُوا الْفَارُوقَ تَفْقِيهَا (٦)
وَجِئْنَا بِثَلَاثٍ لَا تُبَالِيهَا (٧)
فَقَدْ يُزَنُّ مِنَ الْحَيْطَانِ آتِيهَا (٨)

- (١) أي قمه غاب في قم النار وهو يشعلها.
(٢) يُشير الشاعر بالأبيات التالية إلى ما روي من أن عمر تسور الحائط على جماعة يشربون الخمر يريد أن يُباغتهم، فأنكروا عليه ثلاثة أمور: ١ - دخوله عليهم من غير الباب. ٢ - عدم استئذانه. ٣ - تجسسه عليهم، وكل من هذه الأمور الثلاثة نهى الله عنها، فغلبوه بالحجة، فانشى عنهم.
(٣) ظَهَرَتْ حَائِطُهُمْ: علوته. اللَّيْلُ السَّاجِي: الساكن.
(٤) الذُّوَابَةُ: الضفيرة من الشعر، والمراد بها، هنا، أعلى الرأس. حَاسِنِيهَا: شاربها.
(٥) فِيهَا: أي في الخمر.
(٦) الشَّرْبُ: الشاربون. بَرَّعُوا: قاموا. الْفَارُوقُ: لقب عمر.
(٧) أَي نَحْنُ أَتَيْنَا بِمَعْصِيَةٍ، وَأَنْتَ أَتَيْتَ بِثَلَاثٍ.
(٨) يُزَنُّ: يَنَّهُم.

وَأَسْتَأْذِنِ النَّاسَ أَنْ تَفْشَىٰ يُبُوتَهُمْ
وَلَا تَجَسَّسْ، فَهَٰذِي الْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ
فَعُدَّتْ عَنْهُمْ وَقَدْ أَكْبَرْتَ حُجَّتَهُمْ
وَمَا أَنْفَتَ وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ خُرُوجٍ
وَلَا تُلِمْ بِسَدَارٍ أَوْ تُحَيِّيهَا
بِالنَّهْيِ عَنْهُ، فَلَمْ تَذْكَرْ تَوَاهِيَهَا^(١)
لَمَّا رَأَيْتَ كِتَابَ اللَّهِ يُعَلِّمُهَا
مِنْ أَنْ يَحُجَّكَ بِالآيَاتِ عَاصِيَهَا^(٢)

(١) أي: لا تدخل الدار حتى تستأذن وتسلم على أهلها.
(٢) الخرج: الإثم. يحجك. يغلبك بالحجة.

صفي الدين الحلّي في مدح الملك الناصر

الشاعر هو عبد العزيز بن سرايا (١٢٧٨ م / ٦٧٧ هـ - ١٣٤٩ م / ٧٥٠ هـ).
شاعر عصره، له مؤلفات عدّة في الشعر، والزجل، والأغلاط اللغويّة، وغيرها.

والممدوح هو محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحيّ (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م -
٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) من كبار ملوك الدولة القلاوونيّة. له آثار عمرانيّة ضخمة،
وتاريخ حافل بجلائل الأعمال. كان غايةً في الكرم، قيل: وهب في يوم واحد ما
يزيد على مئة ألف دينار ذهبًا.

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة لصفي الدين الحلّي قالها في مدحه عند قدومه
إلى الحجاز.

مَلِكٌ يَسْرَى تَعَبَ الْمَكَارِمِ رَاحَةً	وَيَعُدُّ رَاحَاتِ الْقِرَاعِ مَتَاعِيَا
يَمَكَارِمٍ تَذَرُّ السَّبَاسِبَ أَبْحُسْرَا	وَعَزَائِمٍ تَذَرُّ الْبِحَارَ سَبَاسِيَا
تُرْجَى مَوَاهِبُهُ وَيُرْهَبُ بَطْشُهُ	مِثْلَ الزَّمَانِ مُسَالِمَا وَمُحَارِبَا
فَإِذَا سَطَا مَلَأَ الْقُلُوبَ مَهَابَةً	وَإِذَا سَخَا مَلَأَ الْعُيُونَ مَوَاهِيَا
أَبْقَى قَلَاوُنُ الْفِخَارَ لِوَلَدِيهِ	إِرْتَا وَقَازُوا بِالشَّاءِ مَكَاسِيَا

قَوْمٌ إِذَا سَيَّمُوا الصَّوَّافِينَ (١) صَيَّرُوا
 عَشِقُوا الْحُرُوبَ تَيْمَنًا يَلْقَا الْعِدَى
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَزِيزُ وَمَنْ لَهُ
 أَصْلَحْتَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَيْئَةٍ
 وَحَرَسْتَ مُلْكَكَ مِنْ رَجِيمٍ مَارِدٍ
 لَا يَنْفَعُ التَّجْرِبُ خَصْمَكَ بَعْدَ مَا
 وَجَعَلْتَ هَامَاتِ الْكُمَاةِ مَنَابِرًا
 وَبَدَلْتَ لِلْمُدَّاحِ صَفْوًا خَلَائِقِ
 لَمْ يَمَلُّوا فِيكَ الْبُيُوتَ غَرَابًا
 لَوْ أَنَّ أَعْضَانَا جَمِيعًا أَلْسُنُ

وله من قصيدة يمدح بها السلطان الملك المنصور

نجم الدين أبا الفتح غازي بن ارتق

إِنَّ لَمْ أُرْزُ رَبِّعَكُمْ سَعِيًّا عَلَى الْحَدَقِ
 تَبَّتْ (٢) يَدَيَّ إِنْ تَنَنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ
 يَا جِبْرَةَ الْحَيِّ هَلَّا عَادَ وَصَلُّكُمْ
 لَا تَنْكُرُوا فَرْقِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمْ
 هَبَّ النَّسِيمُ عِرَاقِيًا فَشَبَّوَقْنِي
 فَمَا تَنَفَّسْتُ وَالْأَرْوَاحُ سَسَارِيَةَ
 فَإِنَّ وُدِّي مَنُسُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
 بِيضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي
 لِمُدْنِفٍ مِنْ خُمَارِ الْوَجْدِ لَمْ يَفْسُقِ
 إِنَّ الْفِرَاقَ لَمُشْتَقٌّ مِنَ الْفَرْقِ
 وَطَالَمَا هَبَّ نَجْدِيًّا فَلَمْ يَشُقِ
 إِلَّا أَشْتَكْتُ تَسْمَاتُ الرِّيحِ مِنْ حُرْقِي

(١) جمع صافن هو من الخيل القائم على ثلاث.

(٢) هلكت وضلت.

ذَرَّ أَيُّهَا الصَّبُّ تَذْكَارَ الدِّيَارِ إِذَا
 فَهَذِهِ شُهْبُ الشَّهْبَاءِ سَطِطَعَةً
 سَمَاءَ مَجْدٍ بَدَا فِيهَا فَزَيَّنَهَا
 مَلِكٌ غَدَا الْجُودُ جُزْءًا مِنْ أُنَامِلِهِ
 أَعَادَ لَيْلَ الْوَرَى صُبْحًا وَكَمْ رَكَضَتْ
 نَوَلاً أَبُو الْفَتْحِ نَجْمُ الدِّينِ مَا فُتِحَتْ
 مَلِكٌ بِهِ أَكْتَسَتْ الْأَيَّامُ ثُوبَ بَهَا
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ طَائِرُهُ
 أَحْبَبْتَ بِالْجُودِ آسَارَ الْكِرَامِ وَقَدْ
 لَوْ أَشْبَهْتِكَ بِحَارِ الْأَرْضِ فِي كَرَمِ
 لَوْ أَشْبَهَ الْغَيْثُ جُودًا مِنْكَ مُنْهَمِرًا
 كَمْ قَدْ أَبَدْتَ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنْ فِئَةٍ
 بِكُلِّ أبيضٍ دَامِي الْخَدِّ تَحْسِبُهُ
 فَاسْتَبَشَّرَتْ فِئَةُ الْإِسْلَامِ إِذْ لَمَعَتْ
 وَأَصْبَحَ الْعَدْلُ مَرْفُوعًا عَلَى نَشْرِ^(١)
 كَمْ قَدْ قَطَعْتَ إِلَيْكَ الْبَيْدَ مُنْتَطِبًا
 يَدُلُّنِي فِي الدُّجَى مُهْرِي وَيُسْوِسُنِي
 وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ عَدْلِ الْعَدُولِ عَلَى

(١) النسر المكان المرتفع.

مُتَعَتَ فِيهَا يَعِيشُ غَيْرَ مُتَشِقِّ
 وَهَذِهِ نَسْمَةُ الْفَرْدَوْسِ فَانْتَشِقِ
 نَجْمٌ تَخِرُّ لَدَيْهِ أَنْجُمُ الْأَفْقِ
 فَلَوْ تَكَلَّفَ تَرَكَ الْجُودِ لَمْ يُطِيقِ
 جِيَادُهُ فَارْتَنَسَا الصُّبْحُ كَالْفَسَقِ
 أَبْوَابُ رِزْقِ عَلَيْهَا اللَّوْمُ كَالْفَلَقِ
 مِثْلَ اكْتِسَاءِ عُصُونِ الْبَانِ بِالْوَرَقِ
 وَمَنْ أَيَّادِهِ كَالْأَطْوَاقِ فِي عُنُقِي
 كَانَ النَّدَى بَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الرَّمَقِ
 لِأَصْبَحَ الدَّرُّ مَطْرُوحًا عَلَى الطَّرْقِ
 لَمْ يَنْجُ فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقٌ مِنَ الْفَرَقِ
 تَحْتَ الْعَجَاجِ وَكَمْ فَرَّقَتْ مِنْ فِرْقِ
 صُبْحًا عَلَيْهِ دَمُ الْأَبْطَالِ كَالشَّفَقِ
 لَهُمْ بَسَاطِقُ ذَاكَ الْعَارِضِ الْغَدِيقِ
 لَمَّا وَلِيَتْ وَبَاتَ الْجَوْرُ فِي نَفَقِ
 عَزَمًا إِذَا ضَاقَ حُبُّ الْأَرْضِ لَمْ يَضِيقِ
 حَدَّ الْحُسَامِ إِذَا مَا بَاتَ مُعْتَقِي
 سَمِعِي وَأَظْلَمُ مِنْ مَرَاةٍ فِي حَدَقِي

وقال صفي الدين الحلي في مدح الملك الصالح إسماعيل بن محمد (٠٠٠ - ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م) من ملوك الدولة الأيوبية . قيل في وصفه : كان ملكاً شهماً مُخسباً لحاشيته :

وَلَا يُنَالُ الْعُلَى إِلَّا فَتَى شَرُفَتْ
كَالصَّالِحِ الْمَلِكِ الْمَرْهُوبِ سَطْوَتُهُ
يَكَادُ يَقْرَأُ مِنْ عُنُوسَانِ هِمَّتِهِ
كَالْبَحْرِ وَالذَّهْرِ فِي يَوْمِي نَدَى وَرَدَى
مَا جَادَ لِلنَّاسِ إِلَّا قَبْلَمَا سَأَلُوا
إِذَا غَدَا الْفُضْنُ غَضًّا مِنْ مَنَابِتِهِ
لَمْ يَرْحَلُوا عَنْ حِمَى أَرْضٍ إِذَا نَزَلُوا
تَبَقَى صَنَائِعُهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَهُمْ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَنَانِيُّ لِسُدُولَتِهِ
كَانَتْ عِدَاكَ لَهَا دَسْتُ فَقَدْ صَدَعَتْ
ظَنُّوا تَأْتِيكَ عَنْ عَجْزٍ وَمَا عَلِمُوا
أَحْسَنْتُمْ فَبِعُوا جَهْلًا وَمَا آغْتَرَفُوا
خِلَالُهُ فَسَاطِعَ الدَّهْرِ مَا أَمْرًا
فَلَوْ تَوَعَّدَ قَلْبَ الدَّهْرِ لَانْفَطَرَا (١)
مَا فِي صَحَائِفِ ظَهْرِ الْغَيْبِ قَدْ سَطَرَا
وَاللَّيْثِ وَالغَيْثِ فِي يَوْمِي وَعَى وَقِرَى (٢)
وَلَا عَقَا قَطُّ إِلَّا بَعْدَ مَا قَدِرَا
مَنْ شَاءَ فَلْيَجْنِ مِنْ أَفْنَانِهِ الثَّمَرَا (٣)
إِلَّا وَأَبْقُوا بِهَا مِنْ جُودِهِمْ أَثَرَا
وَالغَيْثُ إِنْ سَارَ أَبْقَى بَعْدَهُ الزَّهَرَا (٤)
ذَكَرَا طَوَى ذِكْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَنْتَشَرَا
حِصَاةً جِدَّكَ ذَاكَ الدَّسْتُ فَانْكَسَرَا
أَنَّ التَّنَائِيَّ فِيهِمْ يُعْقِبُ الطَّفَرَا
لَكُمْ وَمَنْ كَفَرَ النُّعْمَى فَقَدْ كَفَرَا

★ ★ ★

(١) توعَّد: تهدد - انفطر: انشطر.

(٢) الندى: العطاء - الردى: الموت - الليث: الأسد - الغيث: المطر - الوغى: الحرب. القرى: إطعام الضيف.

(٣) الغض: الطري والناصر.

(٤) الصنائع: الأعمال الحميدة.

ابن عمّار في مدح المعتضد بالله

الشاعر هو محمد بن عمار المهري الأندلسي (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م - ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) وزير شاعر هجاء يُلقب بذي الوزارتين. جعله المعتمد بن عباد (صاحب عرب الأندلس) وزيراً له، ومشيراً وجليساً، ثم خلع عليه خاتم الملك، ولقبه بالإمارة، واستنابه على «مرسية» فعصى بها، وتملكها.

والممدوح هو عباد بن محمد بن إسماعيل (٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م - ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م) صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف. كان شجاعاً حازماً، ينعت بأسد الملوك. طمع إلى الاستيلاء على جزيرة الأندلس، فدان له أكثر ملوكها، واستولى على غربها. كان يطرب للشعر، ويقوله.

ومن قصيدة لابن عمّار قالها في مدحه نقتطف الأبيات التالية:

أدِرِ الْمُدَامَةَ فَالْنَسِيمُ قَدِ انْتَبَرَى	وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ الْعَيْنَانَ عَنِ السُّرَى
وَالصَّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَأْفُورَهُ	لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا الْعُنْبُرَا
وَالرَّوْضُ كَالْحَسَنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ	وَشَيْبَا وَقَلْدَهُ نَسَدَاهُ جَسُوهَرَا
رَوْضٌ كَأَنَّ النَّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ	صَافٍ أَطْلَّ عَلَيَّ رِذَائِهِ أَخْضَرَا
وَتَهْوِزُهُ رِيحُ الصَّبَا فَتَخَالُهُ	سَيْفَ ابْنِ عَبَّادٍ يُبَدِّدُ عَسْكَرَا

مَلِكٌ إِذَا أَرَادَ حَمَّ الْمُلُوكِ بِمَوْرِدِ
أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى
قَدَّاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُ عَنْ
لَا خَلْقَ أَقْرَأَ مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ
أَبْقَنْتُ أَنِّي مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةِ
وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبِّي مُخْصِبٌ
مَلِكٌ يَسْرُوكَ خَلْقَهُ أَوْ خَلْقَهُ
أَقْسَمْتُ بِأَسْمِ الْفَضْلِ حَتَّى شِمْتُهُ
وَجَهَلْتُ مَعْنَى الْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ
هَضَرْتُ يَدِي غُصْنَ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ
حَسْبِي عَلَى الصَّنْعِ الَّذِي أَوْلَاهُ أَنْ
السَّيْفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيَادِ خُطْبَةِ
مَا زِلْتَ تُغْنِي مَنْ عَنَّا لَكَ رَاجِيًا
حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ السَّرِّيَّاتِ مَحْجِرًا
فَلَيْزُنْ وَجَدْتُ نَسِيمَ حَمْدِي عَاطِرًا

وَتَحَاهُ لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصُدُّرًا
وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكِرَى
نَارِ الْوَعَى إِلَّا إِلَى نَارِ الْقِرَى
إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ الْمَوَاكِبَ أَنْطَرًا
لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الْكَوْثَرَا
لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الْعَمَامَ الْمُمْطِرَا
كَالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنْظَرًا أَوْ مَخْبَرَا
فَقَرَأْتُهُ فِي بُرْدَتِيهِ مَصَوَّرَا
فَقَرَأْتُهُ فِي رَاحَتِيهِ مُفَسَّرَا
وَجَنَّتْ بِهِ رَوْضَ السَّرُورِ مَنْسَوَّرَا
أَسْعَى بِجِدِّ أَوْ أَمُوتَ قَاغِدَرَا
فِي الْحَرْبِ إِنْ كَانَتْ يَمِينُكَ مِنْبَرَا
نَيْلًا وَتُنْفِيسِي مَنْ عَتَا وَتَجَبَّرَا
رَحْبًا وَضَمَّتْ مِنْكَ طَرْفَا أَحْوَرَا
فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بَرِّكَ أَعْطَرَا

الفصل الثاني

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

لقد اتصل الشعراء بالأمراء والوزراء والأشراف أكثر من اتصالهم بالملوك والخلفاء، ذلك أنه لم يكن متيسراً للشعراء أن يدخلوا إلى أبواب الملوك قبل أن يحفظوا ببقاء من هم أدنى مرتبة منهم. فقد مدح النابغة الذبياني في أول الأمر قائد الحارث الغساني كما مدح زهير هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء. فهو يقول في أحد ممدوحيه:

تراه، إذا مسا جئتسه، مهتلاً كأنك تُعطيهِ الذي أنت سائله

وهذه الصورة أعجبت المتأخرين فكرروها في شعرهم بعده، يصفون المفضل وهو يجود بماله قرير النفس، على وجهه بشاشة كأنه يتقبل الهدية ولا يعطيها.

أما الأعشى فقد مدح كثيراً وكان أول من سأل بشعره، فإذا ممدوحه قوي معطاء يهب المال حين يشتد القحط في زمن الشتاء وتهزل المرضعات من الأنعام. ثم يأتي عصر بني أمية. ويكثر فيه العمال والولاة والوجهاء فيتوزع الشعراء عليهم مادحين. وقد مدح الفرزدق كثيراً من هؤلاء أمثال الحجاج بن يوسف وخالد بن عبدالله القسري، فأثنى على شجاعتهم وكرمهم وأصالة نسبهم وشكرهم على نعمتهم ودعاهم إلى انقاده مما هو فيه من ضنك وحاجة إلى المال. ثم تبعه جرير فمدح القواد والأمراء وتكسب بمديحه وكان الحجاج أبرز ممدوحيه.

ثم جاء العصر العباسي فتوزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون طالبين قضاء الحاجة وبلوغ الأرب. فبشّار حين مدح وزير المهدي اعترف له بأن انتظاره لثوابه قد طال. واضطرّ الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء إلى مرتبة الخلفاء والملوك وإلى أن يسبغوا عليهم أثواباً فضفاضة، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء، لتقارب الصور والصيغ والأوصاف. وقد أصبح المديح حرفة ومهنة يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال. وغدا الأعرّاء من الشعراء يأنفون من نظم الشعر ممّا دفع بأبي فراس الحمداني إلى نفي صفة الشاعر عن نفسه حين قال:

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَامْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي فَمَا أَنَا مَدَاخٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ
لقد أسقط المديح الشعر عن عرشه وأسقط معه قائله بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع حيث كانت القبائل تهنيء بعضها بعضاً بولادة الشاعر وتقوم وتقعد لقوله، وتفرش الولاثم لقدمه وتقيم الأفراح لانتقاله ويحلّ من الملوك محلّ النديم والصديق.

ثم جاء أبو تمام فقدّس البطولة في أروع صورها على الطريقة التقليدية، فأجاد وابتكر حتى ليصحّ القول إنّ مدائحه لو انتظمت في كتاب واحد لجمعت في وصف المفاخر والأمجاد ملحمة تاريخية من أروع ما كتب في الشعر الملحمي. قال في ممدوحه وقد أشرك الناس معه في مديحه:

كريمٌ متى أمدحُهُ، أمدحه والورى معي، ومتى ما لمتُهُ، لمتُهُ وحدي
أو يصف ممدوحه قائلاً:

إقدامٌ «عمرو»، في سماحة «حاتم» في حلم «أحنف»، في ذكاء «إياس»^(١)

(١) هو عمرو بن معد يكرب، وإياس هو ابن معاوية، كان قاضيًا بالبصرة.

ثم جاء البحتري فاقتفى آثار أبي تمام وجعل ممدوحيه مشاعل تضيء في الكرم فتطفئ الكواكب، وسيوقاً مشهورة على الأعداء، وربيعاً من العطر والزهر على الدنيا. ومثله ابن الرومي الذي غالى وأسرف في القول حتى جعلنا نتساءل: هل نؤمن بما يقوله هؤلاء الشعراء؟ إلى أن جاء المتنبي فبلغ بهذه المغالاة درجة جعلنا نصدق معها أن هؤلاء الممدوحين كانوا دائماً المنتصرين، يفرّ الأعداء أمامهم مولين الأدبار ذلاً ورهبة، مما جعل المستشرقين يتساءلون إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون أمر الحروب أو أنهم لم يشهدوها. وقد انتقلت تلك العدوى إلى القرن العشرين حتى رأينا أحمد شوقي يردّد: «وما الجيش إلا ربّة حين يُنسب». فسار هو نفسه على خطّة هؤلاء، ولم يخرج عن تشبيهات القدماء في وصفه الوزراء والقوّاد. وليس عجباً أن يمدح شوقي أبطال الترك من أمثال مصطفى كمال، لأنّ الشاعر تهزّه البطولة أتى كانت: فمدح القائد نابوليون حين وقف على قبره بباريس، ومدح سعد زغلول سياسياً وزعيماً. أمّا حافظ إبراهيم واسماعيل صبري فلم يختلفا كثيراً عن نهج استاذهما شوقي في مدح الوجهاء والوزراء على طريقة الشعر في عصر بني العباس.

الفرزدق في مدح زين العابدين

هو همام بن غالب بن صعصعة (٠٠٠ - ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء ، من أهل البصرة ، عظيم الأثر في اللغة ، كان يقال : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس ، يشبه بزهير بن أبي سلمى .

والممدوح هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣٨ هـ / ٦٥٨ م - ٩٤ هـ / ٧١٢ م) رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، وأحد من كان يُضرب بهم المثل في الحلم والورع . قيل : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم ومآكلهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلى منازلهم .

وروي في مناسبة هذه القصيدة أن هشام بن عبد الملك حجّ في خلافة أبيه ، فطاف بالبيت يريد استلام الحجر الأسود ، فلم يستطع لشدة ازدحام الناس ، فتَنَحَّى جانباً . في هذا الوقت أقبل زين العابدين (علي بن الحسين بن أبي طالب) فطاف في البيت ، فأفسح له الناس في المجال حتى استلم الحجر . فسأل أحد أهل الشام هشاماً : « من هذا الذي يحترمه الناس هذا الاحترام ؟ » فأجاب هشام ، إمّا تَجاهلاً ، وإمّا خوفاً من أن يقوم عليه أهل الشام : « لا أعرفه » . فسمعته الفرزدق فأنشد :

هذا الذي تعرفُ البطحاءَ وطأتهُ هذا الذي تعرفُ البطحاءَ وطأتهُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلهمُ هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلهمُ
هذا ابنُ «فاطمة» إن كنتَ جاهلَهُ هذا ابنُ «فاطمة» إن كنتَ جاهلَهُ
وليسَ قولك: من هذا؟ بضائيرهَ وليسَ قولك: من هذا؟ بضائيرهَ
كلتا يديهِ غياثٌ عمّ نفعُهُما كلتا يديهِ غياثٌ عمّ نفعُهُما
سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بسوادِرُهُ سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بسوادِرُهُ
خَمالٌ أُنقالِ أقوامٍ إذا أفُتدِحُوا خَمالٌ أُنقالِ أقوامٍ إذا أفُتدِحُوا
ما قال: «لا» قطُّ إلا في تشهدهِ ما قال: «لا» قطُّ إلا في تشهدهِ
عمّ البريةِ بالإحسانِ فأنقشعتُ عمّ البريةِ بالإحسانِ فأنقشعتُ
إذا رأتَهُ قريشٌ قال قائلُهُما: إذا رأتَهُ قريشٌ قال قائلُهُما:
يُغضي حياءً ويُغضي من مهائبهِ يُغضي حياءً ويُغضي من مهائبهِ

- (١) البطحاء: أرض منبسطة تقوم «مكة» عليها. البيت: الكعبة. الحلى: الأرض الواقعة وراء «مكة».
- (٢) الحرم: «مكة» وما يحيط بها.
- (٣) العلم: الجبل أو الراية.
- (٤) فاطمة: ابنة الرسول (ﷺ) وزوج علي بن أبي طالب، وجدة «زين العابدين» لأبيه. جدّه: الرسول (ﷺ) وهو جدّ أبيه لأمه.
- (٥) بضائره: بمضراً به، أو بمنقّص من قيمته.
- (٦) غياث: ما يساعد به المحتاج، عمّ: شمل. تُستَظفَران: يطلب سيلانها. يعروهما: يصيبها.
- (٧) الخليقة: الطبع. بوادره: ج بادرة وهي ما يظهر من الإنسان ساعة الغضب من خطأ أو نحوه.
- (٨) أفُتدِحُوا: صعب عليهم الأمر. الشمائل: ج شميلة وهي الطبع.
- (٩) التشهد: قول «لا إله إلا الله».
- (١٠) البرية: الخلق. الغياهب: ج غيب وهو الظلمة. الإملاق: الفقر.
- (١١) هذا: كتابة عن «زين العابدين».
- (١٢) يغضي: يميل طرفه أو نظره.

اللَّهُ شَرَّفَهُ قَدَمًا وَعَظَّمَهُ
 أَيِ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
 مَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَشْكُرْ أَوْلِيَّيَّةَ ذَا
 يُنْمَى إِلَى ذُرْوَةِ الدِّينِ الَّتِي قَصَّرَتْ
 مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبَعْتُهُ
 يَنْشَقُّ ثَوْبَ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ
 مِنْ مَعْشَرِ حُبِّهِمْ دِينَ وَبُغْضِهِمْ
 مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ
 إِنْ عَدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أُمَّتَهُمْ
 هُمْ الْغِيُوثُ إِذَا مَا أَزَمَتْ أَزَمَتْ
 لَا يُنْقِصُ الْعُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكْفَهُمْ
 يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وَالتَّلَوَى بِحُبِّهِمْ

جَرَى بِذَلِكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ (١)
 لِأَوْلِيَّيَّةِ هَذَا أَوْ لَهُ نِعْمٌ
 فَالذِّينُ مِنْ نَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأَمَمُ
 عَنْهَا الْأَكْفُ وَعَنْ إِدْرَاكِهَا الْقَدَمُ (٢)
 وَقَضَلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأَمَمُ
 طَابَتْ مَعَارِسُهُ وَالْحَيْمُ وَالشَّيْمُ (٣)
 كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظَّلْمُ (٤)
 كَفَرٌ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصِمٌ (٥)
 فِي كُلِّ بَدءٍ وَمَخْتِومٌ بِهِ الْكَلِيمُ (٦)
 أَوْ قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ؟ قِيلَ: هُمْ (٧)
 وَالْأَسَدُ، أَسَدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحْتَدِمٌ (٨)
 سَيَانَ ذَلِكَ: إِنْ أَثَرُوا وَإِنْ عَدِمُوا (٩)
 وَيُسْتَرَبُّ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنَّعْمُ (١٠)

(١) في لوحه القلم: أي ما كُتِبَ له.

(٢) ينمى: ينتسب. قصرت: عجزت.

(٣) النبعة: نوع من الشجر الصلب، وهنا كناية عن نسبه. الخيم: الطبيعة.

(٤) الدجى: الظلام. غرته: وجهه. تنجاب: تزول.

(٥) منجى: خلاص. معتصم: ملجأ للاحتماء.

(٦) الكلم: الكلام.

(٧) أئمتهم: ج «إمام»، وهو الذي يقتدي به الناس.

(٨) الغيوث: ج «غيث» وهو المطر. أزممت: اشتدت. الشرى: موضع تكثر فيه الأسود.

(٩) العسر: الضيق. بسطًا: سخاءً وكرمًا. سَيَانَ: مثنى «سي»، وهي المثل أو الشبه. عدموا: افتقروا.

(١٠) يستربُّ: يُستزاد.

المتنبّي في مدح سيف الدولة الحمدانيّ

هو شاعر عُصْرِهِ، بل شاعر العرب جميعًا على مَرَّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٩١٥ م / ٣٠٣ هـ - ٩٦٥ م / ٣٥٤ هـ) قضى حياته متنقلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنّ أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. اشتهر بالشعر الحكميّ، والمدح والهجاء.

أمّا الممدوح فهو علي بن عبدالله بن حمدان التغلبيّ (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م - ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م)، أمير حلب. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة، وكان كثير العطايا، مقرّبًا لأهل الأدب، يقول الشعر الجيّد الرقيق. قيل: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. والقصيدة التالية قالها المتنبّي في مدحه عندما انتصر على الدّمستق في بلدة الحدث.

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِفَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ
يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّةً وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخَضَارِمُ^(١)

(١) الخضارم: الكثيرة العدد.

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ
 هَلِ الْحَدِيثُ الْحَمْرَاءُ تُعْرِفُ لَوْنَهَا
 سَقَتَهَا الْغَمَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ
 بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا
 وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَاصْبَحَتْ
 طَرِيدَةً دَهْرٍ سَاقَهَا فَرَدَدَتْهَا
 تُفِيْتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ
 إِذَا كَانَ مَا تُسْوِيهِ فَعَلًا مُضَارِعًا
 وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِسَاقِي
 تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَّمَى هَزِيمَةً
 تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى
 ضَمَمْتَ جَنَاحِهِمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً

وَذَلِكَ مَا لَا تَدْعِيهِ الضَّرَاغِمُ^(١)
 وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ^(٢)
 فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتَهَا الْجَمَاجِمُ^(٣)
 وَمَسُوجُ الْمَنَاسِيَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ
 وَمَنْ جُثِّثَ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمٌ^(٤)
 عَلَى الدِّينِ بِالْخَطِيِّ وَالِدَّهْرُ رَاغِمٌ^(٥)
 وَهَنْ لِمَا يَأْخُذُنَ مِنْكَ غَوَارِمٌ^(٦)
 مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
 كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ^(٧)
 وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بَسَائِمٌ^(٨)
 إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْعَيْبِ عَالِمٌ^(٩)
 تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ^(١٠)

(١) الضراغم: الآساد.

(٢) الحدث: اسم القلعة التي بناها سيف الدولة، ووصفها «بالحمراء» لاصطبائها بدماء الروم.

(٣) الغمام: ج «غمامة» وهي السحابة، الغرّ: البيض.

(٤) التمام: ج «تميمة» وهي خرزة أو نحوها تعلق في العنق دفعاً للشر.

(٥) الخطي: الرمح راغم: ذليل.

(٦) تفيت الليالي: تجبر على ترك. غوارم: أي ملزمة بأداء الغرامة.

(٧) الردى: الموت، الهلاك.

(٨) كلمى: ج «كليم»، أي جريح. وضاح: مشرق.

(٩) النهي: العقل.

(١٠) الجناحان هنا ميمنة الجيش وميسرته. الخوافي: ريش يكون تحت جناح الطائر. القوادم: عشر

ريشات في مقدمة الجناح.

بِضْرَبِ أُنَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ وَصَارَ إِلَى اللَّبَّاتِ وَالنَّصْرُ قَادِمٌ^(١)
حَقَرَتِ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا وَحَتَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمْحِ شَاتِمٌ^(٢)
وَمَنْ طَلَسَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ^(٣)
نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَدِ كَلِّهِ كَمَا نَثَرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ^(٤)
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذَّرَى وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ^(٥)
تَظُنُّ فِرَاحُ الْفَتْحِ أَنَّكَ زُرْتَهَا بِأَمَاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ^(٦)
إِذَا زَلَقْتَ مَشِيَّتَهَا بِطُسُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ^(٧)
لَكَ الْحَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِي لَفْظُهُ فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّي نَاطِمٌ^(٨)
آلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغَمِّدًا وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمٌ
هَنِيئًا لِضْرَبِ الْهَامِ وَالْمَجْدِ وَالْعَلَى وَرَاجِيكَ وَالْإِسْلَامَ إِنَّكَ سَالِمٌ^(٩)
وَلِمَ لَا يَقِي الرَّحْمَنُ حَدِيكَ مَا وَقَى وَتَفْلِيقُهُ هَامَ الْعِدَى بِكَ دَائِمٌ^(١٠)

★ ★ ★

- (١) اللَّبَّاتُ: الصدور.
- (٢) الرُّدَيْنِيَّاتُ: الرماح، وهي نسبة إلى «رُدَيْنَة» امرأة باليمامة اشتهرت وزوجها بصنع الرماح.
- (٣) الْبَيْضُ: السيوف. الْخِفَافُ: المرهفة. الصَّوَارِمُ: القواطع.
- (٤) الْأَحْيَدُ: اسم جبل. نَثَرْتَهُمْ. فرقتهم، وزعتهم.
- (٥) الْوُكُورُ: عش الطائر. الذَّرَى: أعالي الشيء.
- (٦) الْفَتْحُ: ج «فتحاء» وهي أنثى العقاب. الْعِتَاقُ: كرام الخيل. الصَّلَادِمُ: الخيل الشديدة الصلابة.
- (٧) زَلَقْتَ: زلت بها القدم. الصَّعِيدُ: وجه الأرض. الْأَرَاقِمُ: الحيات.
- (٨) الدَّرُّ: كناية عن شعره.
- (٩) الْهَامُ: ج «هامة» وهي أعلى الرأس. الْعَلَى: المراتب العالية.
- (١٠) تَفْلِيقُهُ: شقه.

أبو تمام في مدح الحسن بن سهل

سبق التعريف بالشاعر، أما الممدوح فهو الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسي، (١٦٦ هـ / ٧٨٢ م - ٢٣٦ هـ / ٨٥١ م) أحد كبار القادة والقضاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب، والفصاحة، وحسن التوقيعات والكرم، للشعراء فيه أماديح. قال أبو تمام في مدحه:

خَلَائِقَ الْحَسَنِ اسْتَوْفِي الْبَقَاءَ فَقَدْ أَصْبَحْتَ قُرَّةَ عَيْنِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ أَخْلَاقِهِ أَبَدًا وَإِنْ تَوَى وَحْدَهُ فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
صِيغَتْ لَهُ شِمَّةٌ غَرَاءَ مِنْ ذَهَبٍ لَكِنَّهَا أَمْلَكُ الْأَشْيَاءِ لِلذَّهَبِ
لَمَّا رَأَى أَدَبًا فِي غَيْرِ ذِي كَرَمٍ قَدْ ضَاعَ أَوْ كَرَمًا فِي غَيْرِ ذِي أَدَبِ
سَمَا إِلَى السُّورَةِ^(١) الْعَلِيَاءَ فَاجْتَمَعَا فِي فِعْلِهِ كَأَجْتِمَاعِ النُّورِ وَالْعُشْبِ

★ ★ ★

(١) السورة: المنزلة.

ابن خفاجة الأندلسي في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم

الشاعر هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة الاندلسي (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م - ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م) شاعر وكاتب من البلغاء. غلب على شعره وصف الرياض، ومناظر الطبيعة. والقصيدة التالية قالها في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم الأندلسي.

ضَافِي رِذَاءِ الْمَجْدِ طَمَّاحُ الْعُلَى	طَامِي عِبَابِ الْجُودِ رَحْبُ السَّارِ
جَرَّارُ أَدْيَالِ الْمَعَالِي وَالْقَنَا	خَامِي الْحَقِيقَةِ وَالْحِمَى وَالْجَارِ
طَرْدُ الْقَيْصِ بِكُلِّ قَيْدِ طَرِيدَةٍ	زَجَلِ الْجَنَاحِ مُورِدِ الْأَطْفَارِ
مُلْتَمَّةٌ أَعْطَافُهُ بِخَيْرَةٍ	مَكْحُولَةٌ أَجْفَانُهُ بِنُضَارِ
خَدَمَ الْقَضَاءِ مُرَادَهُ فَكَأَنَّمَا	مَلَكْتُ يَدَاهُ أَعْيَنَةَ الْأَقْدَارِ
وَعَنَى الزَّمَانَ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا	أَصْنَعِي الزَّمَانَ بِهِ إِلَى أَمَارِ
وَجَلَا الْإِمَارَةَ فِي رَقِيقِ نَضَارَةٍ	جَلَّتِ الدُّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ
فِي حَيْثُ وَشَحَّ لَبَّةٌ بِقِلَادَةٍ	مِنْهَا وَحَلَّى مِعْصَمًا بِسِوَارِ
جَدْلَانُ يَمَلَأُ مِئْحَةَ وَبَشَاشَةٌ	أَيْدِي الْعُقَاةِ وَأَعْيُنَ الزُّوَارِ

أَرَجَ النَّدِيَّ بِذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ
بَطَلَ حَوَى الْفَلَكَ الْمُحِيطَ بِسُرْجِهِ
بِيَمِينِهِ يَوْمَ الْوَعَى وَشِمَالِهِ
وَالْخَيْلُ تَعْتُرُ فِي شَبَاشُوكِ الْقَنَا
وَالْبَيْضُ تَحْنِي فِي الطَّلَى فَكَأَنَّمَا
وَالنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَا شَمْسِ الضُّحَى
صَجِبَ الْحَسَامَ النَّصْرُ صُحْبَةَ غِبْطَةِ
لَوْ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ بِنَظْرَةِ
وَقَضَى وَقَدْ مَلَكَتْهُ هِزَّةُ عِزَّةِ

مُتَنَفِّسٍ عَنِ رَوْضَةِ مِعْطَارِ
وَأَسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ الْمُقْدَارِ
مَا شَاءَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ إِعْصَارِ
قِصْدًا وَتَسْبِخُ فِي أَلْدَمِ الْمَوَارِ
لُؤَيْتِ عُرَى مِنْهَا عَلَى أَرْزَارِ
فَكَأَنَّهُ صَدَأُ عَلَى دِينَارِ
فِي كَفِّ صَوَالٍ بِهِ سَوَارِ
يَوْمًا لِنَارٍ وَلَمْ يَنْسَمِ عَنْ نَارِ
تَحْتَ الْعَجَاجِ وَضِحْكَةُ أَسْتِيشَارِ

★ ★ ★

ابن الأزرق الأندلسي في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم وتهنئته

هو محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (٠٠٠ - ٨٩٦ هـ /
١٤٩١ م) عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون ، من أهل غرناطة . له نظم
جيد ، قال في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم الأندلسي :

يَا مُطِيعَ الْأَنْوَارِ زَهْرًا يُجْتَنَى وَمُشْعِشِيعَ الصَّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ
بِكَ مَجْلِسُ الْأَنْسِ أَطْمَأَنَّ وَبَابِنِ عَا صِمِ أَطْمَأَنَّ مِنْ الرِّئَاسَةِ مَجْلِسُ
بَدْرٍ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مُتَطَلِّعٌ غَيْثٌ بِأَشْتَاتِ النَّدَى مُتَبَجِّسُ
حَامِي فَلَمَّ نَرْتَعُ لِخُطْبِ يَعْتَرِي وَوَقَى فَلَمَّ تَحْفِلُ بِدَهْرِ يَبْنَحُ
شَيْمٌ مَهْدَبَةٌ وَعِلْمٌ رَاسِخٌ وَمَكَارِمٌ هُنَّ وَمَجْدٌ أَفْعَسُ
لَوْ كَانَ شَخْصًا ذِكْرُهُ لَبَدَا عَلَي أَعْطَافِهِ مِنْ كُلِّ حَمْدٍ مَلْبَسُ
ذَاكُمْ أَبُو يَحْيَى بِهِ تُحْمَى الْعَلَى وَبِهِ خِلَالُ الْفَخْرِ طَرًّا تُحْرَسُ
بَيْتٌ عَلَي عَمَدِ الْفَخَارِ مُطَنَّبٌ مَجْدٌ عَلَي مَثَنِ السَّمَاكِ مُؤَسَّسُ
إِنَّا لَنُعْذُو هَيْمًا فَيُنِيْلُنَا رِيًّا وَيُوحِشُنَا النَّوَى فَيَسُونَسُ

لَمْ نَدْرِ قَبْلَ يَرَاعِهِ وَتَنَانِهِ
هُنَّ الْبِرَاعُ بِهَا يُؤْمَنُ خَائِفًا
مَهْمَا أَنْبَرَتْ فَهِيَ السَّهَامُ بُرَى لَهَا
يَشْقَى بِمَامَتِهِ الشَّكِيُّ الْمُعْتَرَى
قَدْ جَمَعَ الْأَصْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ
عَطَشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِينُ مُتَمِرًا
لِلَّهِ مِنْ تِلْكَ الْبِرَاعِ جِسْوَادِبُ
رُضْنَا شِمَاسَ الْقَوْلِ فِي أَوْصَافِهَا
وَأَلَيْكَهَا حُلَا تَشَابَهَ نَسْجُهَا
وَأَمْنَا بِعَيْدِ بِنَاسِمٍ مُتَهَلِّلِ
وَأَحْبِسْ لِيَوَاءِ الْفَخْرِ مَوْقُوفًا فَا (م) نَّ الْحَمْدَ مَوْقُوفًا عَلَيْكَ مُحَبِّسُ

★ ★ ★

الشيخ ناصيف اليازجي في مدح أسعد باشا

هو ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط الشهير باليازجي (١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م - ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م)، شاعر من كبار الأدباء في عصره. أصله من حمص، ومولده في كفرشيما (لبنان)، ووفاته ببيروت. من مؤلفاته «مجمع البحرين»، و«العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب». قال في مدح أسعد باشا قائد جيش البلاد العربيّة:

شكّته الطّبي من كثرة الضّربِ فاشتكى
وملّتْ ظُهُورُ الخيلِ منه فملّها
إذا قام من تحت السّرادقِ راكبًا
ولمّا رأينا كيفَ تنقضُ خيلُهُ
إذا ما رمى يومًا بهنّ عواصمًا
تُفارقُ أطرافَ البلادِ خيولُهُ
يطأَنَ الحصى كالترّبِ غيرَ عواصيرِ
ويحسبنَ وحشَ الغابِ آرامَ رامةٍ
عليها أسودٌ تتقي عازَ هاربِ
تَكسرها من ضربه في المفارقِ
إذا لم تُخضب من دمٍ بشقائقِ
أقامَ عجاجًا فوقه كالسّرادقِ
علمنا بها كيفَ أنقضاضُ الصّواعقِ
ضحكنَ على أسوارها والخنادقِ
وأصواتها في قلبها لم تُفارقِ
وملّس الصّفا كالرملِ غيرَ زواهِقِ
ويحسبنَ غابَ الوحشِ زهرَ الحدائقِ
ولا تتقي في الكرّ وقبة غاسقِ

تُمزَّقُ شَمْلَ الْقَوْمِ فِي كَمَلٍ مَارِقٍ
 قَتِيلٍ بِشَارَاتِ الضُّلُوعِ السَّوَابِقِ
 بِأَسْعَدِ خَلْقِ اللَّهِ دِعْوَةَ وَائِيقِ
 لِأَنَّ الْخَنَا فِي سُوقِهِ غَيْرُ نَافِقِ
 وَرَاحَةِ مُسْتَجِدِّ وَمَقْلَبَةِ رَامِقِ
 وَفِي غَامِضَاتِ السَّرِّ نِظْرَةَ حَادِقِ
 فَيَشْكُرُ مِنَّا طَارِقًا شُكْرَ طَارِقِ
 وَلَا تَضِيطُ الدِّينَارَ بِضَعِ دَقَائِقِ
 مُشَاءَ لِيُوقِرَ الْمَالِ فَوْقَ الْأَيَانِقِ
 وَأَطَوَاقِ أَمْنٍ فِي نُحُورِ الْعَوَائِقِ
 فَلَا يَتَوَلَّى عِرْضَهُ سَهْمٌ رَاشِقِ
 كَرِيمٍ عَلَيْهِ هَانَ فَتْحِ الْمَغَالِقِ
 بِبَحْرِ لَهَا فِي بَحْرِ كَفَيْهِ غَارِقِ
 إِلَى اللَّهِ يُهْدَى دُونَ جُرْدِ السَّوَابِقِ
 وَمَنْ لِي بِوَصْفِ مِثْلِ فَضْلِكَ فَائِقِ
 فَلَيْتَ لِي إِنْ شَاعِرٌ غَيْرُ سَارِقِ

رِمَاحَ بِأَيْدِيهَا رِمَاحَ طَوِيلَةَ
 يَبْضُ دَمًا مَا أُنْدَقَ مِنْهَا فَيَأْتَهُ
 إِذَا نَابَ خَطْبُ الدَّهْرِ فَاذْغُ تَيْمُنَا
 عَزِيزٌ أَدَلَّ الدَّهْرَ وَهُوَ عَسَدُوهُ
 كَرِيمٌ السَّجَايَا مِلُّهُ قَلْبِ مُؤَمِّلِ
 لَهُ فِي عِيُوبِ النَّاسِ نِظْرَةُ غَافِلِ
 يُسَرُّ بِمَا يُعْطِي مَسْرَةَ آخِذِ
 صَاحِبِ بَنَانٍ تَضِيطُ الْمُلْكَ دَهْرَهُ
 إِلَى دَارِهِ الرُّكْبَانُ تَهْوِي فَتَنْثَنِي
 لَهُ فِي رُؤُوسِ الْقَوْمِ تَيْجَانُ نِعْمَةٍ
 وَعَيْنٌ تُرَاعِي نَفْسَهُ قَبْلَ غَيْبِهِ
 خَتَمْتُ عَلَى نَظْمِ الْقَوَافِي فَفَضُّهُ
 تَضِيقُ بِحَارِ الشُّعْرِ عَنْهُ وَتَسْتَحِي
 إِلَيْكَ حَمَلْنَا طَيْبَ الْكَلِمِ الَّذِي
 لَقَدْ فُقَّتْ أَهْلَ الْفَضْلِ فَالْقَوْمُ فَضْلُهُ
 إِذَا كُنْتَ بَدْعًا فِي الْكِرَامِ كَمَا نَرَى

★ ★ ★

الشيخ إبراهيم اليازجي في مدح صبحي باشا

هو إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله (١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م - ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م) عالم باللغة والأدب. كان من الطراز الأول في كتاب عصره. كان رزقه من شقّ قلمه، فعاش فقيراً، غني القلب، أبي النفس. من مؤلفاته: «نجمة الرائد في المترادف والمتوارد»، وديوان شعر. قال في مدح صبحي باشا:

هذا وزيرُ المُلْكِ ذو الشَّرَفِ الَّذِي أَرَزَى الثُّرَيَّا وَالسَّمَاكَ الْأَعَزَّ لَا
أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ الْمَسْدَلِقِ نَظْرَةَ فِي كُلِّ مُعْظَمَةٍ وَأَفْتَكُ مَقْتَلَا
وَأَسَدٌ مَنْ عَرَكَ الْأُمُورَ تَصَرُّفًا فِي حَيْسِنٍ لَا يَجِدُ اللَّيْبُ مُعْوَلَا
وَلِيَّ الْبِلَادِ فَكَانَ فِيهَا عَدْلُهُ ظِلًّا وَكَانَ الْأَمْنُ فِيهَا مَنُهَلَا
أَبَدًا يُرَاعِيهَا بِطَرَفٍ سَاهِرٍ خَلَفَ الْحِفَاظُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَغْفَلَا
فَصَلُّ الْخِطَابِ إِذَا قَضَى وَإِذَا أَنْتَبَرَى يَحْكِي بِهَيْمَتِهِ الْقَضَاءَ الْمُنْزَلَا
وَإِذَا يَقُوهُ تَنَسَّاهُ مِنْ لَفْظِهِ دُرَّرَ تَقْلُدُهَا الْمَعَاصِمُ وَالطَّلَى
تَهْوِي النَّفُوسُ عَلَيْهِ مِنَ الْطَافِهِ فَتَرُدُّهَا عَنْهُ الْمَهَابَةُ وَالْعُلَى
حَاوَلْتُ أَنْ أُنَبِّئَ عَلَيْكَ فَخَانَتَنِي قَلَمٌ أَرَاهُ غَدَا بِكَفِّي مِغْزَلَا
فَرَأَيْتُ مَدْحَكَ لَا تَفِيهِ عِبَارَةٌ وَرَأَيْتُ مَدْحَ الْأَكْثَرِينَ تَمَحَّلَا

وَعَدَلْتُ تَقْصِيرِي بِوَصْفِكَ عَاجِزًا وَعَلِمْتُهُ فَعَدَرْتَنِي مَتَفَضِّلًا
وَلَعَلَّ عَجْزِي فِي مَدِيحِكَ نَاطِقٌ غَنِي بِأَفْصَحَ مِنْ ثَنَائِي وَأَطْوَلًا
وَالصَّبْحُ أَوْضَحُ مِنْ مَقَالَةِ قَائِلٍ لَاحَ الصَّبَّاحُ إِذَا تَأَلَّقَ وَأُنْجَلِي

★ ★ ★

الشيخ خليل اليازجي في مدح الخديوي توفيق

هو خليل بن ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط (١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م - ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م). أديب لبناني له شعر. من مؤلفاته «نسمات الأوراق» نظماً، و«الوسائل إلى إنشاء الرسائل».

والممدوح هو الخديوي محمد توفيق بن اسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (١٢٦٩ هـ / ١٨٥٢ م - ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م). في أيامه أنشئ نظام الشورى، وأنشئت المحاكم الأهلية.

قِيَدَتْ نَفْسَكَ بِالثَّبَاتِ شَجَاعَةً إِنَّ الْمَقْيَدَ نَفْسَهُ لَطَلِيْقُ
وَتَبَّتْ فَرْدًا فِي الْخُطُوبِ كَأَنَّمَا لَكَ مِنْ فَرِيْقِ النَّائِيَاتِ رَفِيْقُ
فَتَهَلَّلَتْ مِصْرٌ لَدَيْكَ كَأَنَّهَا صَفْحُ الْمُحَيَّا مِنْكَ وَهُوَ طَلِيْقُ
وَالنَّيْلُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَلْمَعُ وَجْهَهُ مَبَسَّمًا وَلِكَفِّهِ تَصْنِيْقُ
فِي ضِيْقَتِهِ لِلْأَخْضِرَارِ زَبْرَجْدٌ مِنْ خِصْبِهَا وَلَهُ الْعَقِيْقُ عَقِيْقُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ التَّكْدَرُ نَافِعًا وَالنَّفْعُ مَا تَبَغِي لَكَانَ يَرُوْقُ
نَيْلٌ يُلَاقِي مِنْكَ نَيْلًا آخِرًا لِلْعَدْلِ لَيْسَ يَشُوْبُهُ تَرْنِيْقُ
شَرِبَتْ بِهِ مِصْرٌ بِظِلِّكَ أَكُوْسًا طَرِبَتْ بِهَا فَكَأَنَّهِنَّ رَحِيْقُ

تَجْرِي لَسَدَى وَرَادِيهَا وَكَأَنَّهُمَا
وَتَشِفُّ عَنْ أَنْوَارِ عَدْلِكَ دَائِمًا
وَلَكَ الْحِصَانُ مِنَ الْخَلَائِقِ دُونَهَا
وَذِكَاةُ فِكْرِ نَاقِبِ مَتَوَقِّدِ
وَيَكَادُ عِنْدَكَ لِلْبِدَاهَةِ وَالْحِجَى
فَرَعُ الْعَلِيِّ مُحَمَّدٍ وَكَذَا الْفُرُوقِ
عِزُّ بِنَاءِ مِنَ الْقَسْدِيمِ فَبِأَنَّهُ
أَسْتَمُوهُ عَلَى الْعَلِيِّ وَالْحَمْدِ مِنْ
بِالسَّعْدِ مَقْرُونٌ لَفَيْفُكُمْ السَّيِّدِ
فَأَنْعَمَ فَذَلِكَ الْمُبْغِضُوكَ بِرَغْمِهِمْ

مَاءَ الْحَيَاةِ لَدَيْهِمْ مَدْفُوقُ
فَلَهُمْ صَبُوحٌ لَا يَلِيهِ غَبُوقُ
مَا فِي الْعُقُودِ زَبْرَجَدٌ وَعَقِيْقُ
تَجَلُّو ظَلَامَ الْخَطْبِ مِنْهُ بُرُوقُ
قَبْلَ التَّصَوُّرِ يُدْرِكُ التَّصْدِيقُ
عُ تَطِيْبُ إِنْ طَابَتْ لَهُنَّ عُرُوقُ
بَيْتٌ تَحُجُّ لَهُ السُّعُودُ عَتِيْقُ
قِدَمٌ فَذَلِكَ فِي الْفِيخَارِ عَرِيْقُ
أَبَدًا لَيْسَ عَسْدُوهُ مَفْرُوقُ
وَلَطَالَمَا طَوَّعَا فَذَلِكَ صَدِيقُ

★ ★ ★

الفصل الثالث

مدح العلماء والأدباء

لقد تغنى الشعراء بشعرهم فصوّروه منتقلاً على كلّ لسان، جديرًا بالخلود
بينما شعر غيرهم هو صدى لشعرهم. وحين قالوا الشعر في غيرهم من الأدباء
والكتاب والشعراء والعلماء أجادوا في مدحهم، فأتوا على قوة البيان وروعة الأدب
وفضيلة العلم. فقد مدح بشّار واصل بن عطاء، وكان يلثغ بالراء، لكنّه في خطبه
يتخلّص منها ببراعته وقال فيه :

فقام مرتجلاً تغلي بسداهتة كمرجل القين لَمّا حَفَّ باللّهبِ
وجانبَ الرّاء لم يشمرُ بها أحدٌ قبل التصفح والإغراق في الطّلبِ

فشبه الشاعر ارتجاله في الكلام بغليان المرجل وقد حَفَّ به اللّهب، وذكر
تجّبه الرّاء في كلامه مع براعة ودقّة في التعبير.

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمي لحكمته وبلاغته :

لقمان صمتاً وحكمة فإذا قال لقطنا الياقوت من خُطْبِة

وقال في مدح الشاعر والكاتب محمد بن عبد الملك الزيات :

لكّ القلمُ الأعلى الذي بشبّاتسه تُصابُ من الأمر الكلى والمفاصلُ
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعابُ الفكر وهني حوافلُ

أطاعتُهُ أطراف القنا وتقوّضتْ لنجواهُ تقويضَ الخيام الجحافلُ
فصوّرَ القلم قاطعًا كالسيف إذا أمسكت به أصابع الأديب يفعل في الأعداء
فعل الجيوش الجحافل .

والبحتري مدح هذا الوزير الكاتب نفسه وقال يصف أدبه :

وبسديع كأنه الزهر الضّأ حِكُّ في رونقِ الربيعِ الجديدِ
مشرق في جوانب السّمع ما يخد لِقُهُ عَسُوْدُهُ على المستعبدِ

فاذا هو أدب شبيه بزهور الربيع لا يملّ السّامع منه بل يطلب الإعادة والمزيد
لما يتركه في النفس والأذن من آثار طيّبة .

أمّا ابن الرومي فقد مدح الكاتب عبيدالله وأشاد بقدرته على تركيب الألفاظ
حين قال فيه :

وأنتَ الذي يدعو الكلامَ بقُدْرَةٍ فيأتيهِ وحشيُّ الكلامِ وأنسُهُ

وقال المتنبي في عليّ بن عامر الإنطاكي وكان ضليعًا في أصناف العلوم
والنجوم والأدب :

دعاني اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلامُ النّظمُ والنّائلُ النّثرُ

ومدح المتنبي الكاتب ابن العميد وجعله في حكمته كارسطو وفي بأسه
كالإسكندر وفي معرفته وحكمته كبطليموس .

أمّا الشريف الرضي فقد مدح الصاحب إسماعيل بن عبّاد فرأى قلمه أمضى من
السيوف العوالي :

لَكَ القلمُ الماضي الذي لو قرّنته بجزّي العوالي كان أجرى وأجودا

وزاد هذا اللون من المديح في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فقد امتدح حافظ ابراهيم الإمام محمد عبده فالتفت الناس حوله كأنه ابن الخطاب أو علي بن ابي طالب. ومدح شوقي كثيراً من العلماء والادباء وكان ينشد في كل مناسبة قصيدة على عادة أبناء الغرب الذين كانوا يقيمون الحفلات التكريمية يرسلون فيها الخطب في الشعر والنثر لمناسبة إقامة مشروع أو افتتاح مصرف أو تأسيس جامعة. وهذا اللون من أدب المناسبة جديد على الأدب العربي، لكن شعراءنا خاضوا فيه وتسبقوا، واعتلوا المنابر، فصفت لهم الأكف، ونشرت الصحافة أقوالهم في كل قطر، فحملتها الريح مع كل غبار.

أمين نخلة في مدح بشارة الخوري

هو الشاعر اللبناني الأديب أمين رشيد نخلة، صاحب مدرسة تركت طابعها في الشعر، والنثر، والخطابة، والقانون، جمع في أسلوبه رقة الجديد ولطافته إلى روعة القديم وجزالته، فجاء مجلّواً مصقولاً على كثير من العناية والتفنن. من مؤلفاته «دفتر الغزل»، و«المفكرة الريفية».

والممدوح هو بشارة بن عبدالله الخوري البيروتي، أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. له ديوان «الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير».

والقصيدة التالية قالها أمين نخلة في قصر الأونيسكو في بيروت في احتفال لتكريم الأخطل الصغير ومبايعته بإمارة الشعر بعد أن حملها أحمد شوقي سنة ١٩٢٧ م.

أيقولسون: أخطلٌ، وصغيراً أنتَ في دولة القوافي أميرُ
ولك التاجُ، والمطارفُ، والبُردُ وركنٌ مجلّلٌ، وسريرٌ^(١)
فاسحبِ الذيلَ ما تشاءُ، وجسرُ، إنَّ ملكَ البيانِ ملكٌ كبيرُ
وضعَ العصرُ في يديكِ أماناتِ القوافي، والعبءُ حيثُ الجديرُ

(١) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من جريز. البرد: الثوب المخطّط. ركن مجلّل: جانب معظّم.

قد أبقى الله في الفصاحة أن يحدو
فارفع الصوت، إنه صوت لبنان
مُخَوِّلٌ أنت في الفخار، مُعِيْمٌ،
لم تغرّد فصاحة العُرب إلا

منا في العالمين أخيرٌ..
وردّد به، ونِعَمَ الجهير^(١)
فلنا في العصور جاء أثيرٌ...^(٢)
كان منا المغرّد الشحرورًا

★ ★ ★

غزل رِقَّ كالسرين على الوجد،
تسمع الدقّ فيه للقلب، بل تنظر
هُوَ زَادَ العُشاق، أنس لياليهم
ومبانٍ من دقة النسج أثناء
ومعانٍ كأنّ مدهنة المسك

ولانت له القلوب الصخور
دمعًا يجري، ودمعًا يفور..
وكأس بين الندامى تدور
حبير، لا أحرف، وسطور^(٣)
وقد حركت، وفاح العبير^(٤)

★ ★ ★

ذاك غيرُ الجزيل في الرأي،
أثرى الحسن في الوجود تجلّى
رُبَّ قولٍ له على الظلل الخضر،

والحكمة، وهو المرّدّد، المأثور^(٥)
ليراه هذا اللسان البصير...
وقد حفها صبا، وبكور^(٦)

(١) الجهير: العالي.

(٢) مخوّل، مُعِيْمٌ: كريم الأخوال والأعمام. أثير: مشهور، معروف.

(٣) الأثناء: جمع ثني، وهو طي الثوب. حبير: برد موشى.

(٤) مدهنة: قارورة الدهن.

(٥) الجزيل: الكثير.

(٦) الظلل: جمع ظلال. الصبا: ريح خفيفة شرقية. بكور: أول مطر الربيع.

تخرج العينُ منه بالوهم، لا تَذري
وخيالٍ كأنما غَمَرَ الدُّنيا
عَمَرَكَ اللهُ: هل رأيتَ كبيت
بين شطريه قد أُتِيحَ بياضُ،
أروضَ يهتَزُّ، أم تصوِّرُ
وما ضاقَ عنه سَطْرٌ قصيرُ
الشَّعْرِ كهفًا يأوي إليه الضَّميرُ^(١)
وانفساخٍ، فليَنزِلِ المعمورُ...

★ ★ ★

يا أخي الأبلج، الكريمَ على الوَدِّ
فكأنِّي أنا الذي هتفوا باسمي،
جمعتنا على الوداد القوافي،
لا، وحيثك، ما أنا الحاسدُ
أنا مُصْفِيكَ في الشباب، وفي
يا مُغْنِي الصَّبَا، ومن ذا يُغْنِيهِ،
جاءك الشيبُ بالأزاهرِ بيضًا،
زهاني بما زهاك السرورُ^(٢)
وعجَّ المنظومُ، والمنثورُ
والهوى الضخَّمُ، والطلابُ الخطيرُ
الشَّانِيءُ أو طامع حدهاء الغرورُ^(٣)
الشَّيبِ، إخاءٌ لا يعتريه فتورُ^(٤)
إذا أمسك المغني القسديرُ^(٥)
فعلى كلِّ شعرةٍ منه نورُ

★ ★ ★

(١) عمرك الله: تعبير يقال في الدعاء للآخر، والمعنى: أعطاك الله عمراً مديداً.

(٢) الأبلج: الجميل.

(٣) الشانئ: المبغض.

(٤) مصفيك: مخلص لك الود.

(٥) أمسك: امتنع عن الكلام، سكت.

الفصل الخامس

مديح الأوطان والبلدان

١ - مديح الأوطان

أحبّ الإنسان الأرض التي عاش فيها أكانت قاحلة أم خصبة، لأنّها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره، فحنّ إليها وهو بعيد، واطمأنّ إليها وهو قريب، فانشد فيها شعره حنيناً وحرقة، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنّها خير وبركة ونعيم حقاً بل لأنّها قطعة من عمره وفلذة من وجدانه. وقد اشتهر العرب في هذا المديح منذ الجاهلية وما زالوا حتى اليوم.

يقول أحد شعراء العرب القدماء أحمد بن يحيى في بلاده التي أحبّها:

أحبُّ بلاد الله ما بين منعجٍ إلى دار سلمى أن يصوبَ حسابُها
بلادٌ بها حلّ الشباب تمائمسي وأولُّ أرضٍ مسّ جلدي ترابُها

فتلك الأرض التي لامس جلده ترابها للمرة الأولى هي أحبّ أرضٍ إليه، وهي بالتالي وطنه وموضع حبه وتقديسه، وهو بذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن، لا تدخله فلسفة ولا منطق، ولا تحدّه علوم وقوانين، ولا تفرضه حقوق أو واجبات.

ثم نرى ابن الرومي يزيد على زميله تعريفاً بالوطن حين يقول:

بلدٌ صحَّبتُ به الشَّيبَةَ والصَّيبَا ولَبَّسْتُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ

فاذا به يصوّر لنا الوطنَ تصويرًا جميلًا يتمثله في ضميره حيث الشباب والعيش
النضير. وهذا التصوير يشبه الى حدٍ بعيد ما ورد على لسان الشاعر القائل:

تمتّع من شميمِ عرارٍ نجدٍ فما بعد العشيّة من عسارٍ

والعرار هو النبات الطيب يملأ أنف الشاعر ورثتيه وهو في نظره أفضل من
النخيل على ضفاف النيل أو الفرات. فالديار عزيزة لأنها موطن الأصدقاء وموضع
الذكريات، ولا يكون الحبّ للربوع إعجابًا بالحجر والشجر والماء والزهر، وإنما
يكون لما ينعكس منها في النفس وينسكب في الروح ويجري في العروق. هذا
هو الوطن الذي ينصرف عنه المرء وفي كبده تصدّع ويعود إليه وفي نفسه شفاء،
فكأنما النعيم هو القرب منه والجحيم هو البعد عنه.

وقد تبدّلت نظرة الشاعر العربي الى الوطن مع تقدّم الأجيال، فإذا بأبي تمام
يعبر عن حبه لوطنه، في القرن الثالث الهجري، على الشكل التالي:

بالشامِ قَومِي وبغدادِ الهوى وأنا بالرقميتين وبالفسطاطِ إخواني

ونحن اليوم ننظر بعينيّ أبي تمام الى هذا الوطن الكبير من أقصى بغداد إلى
الفسطاط، ومن الرقمتين إلى الشام ونحسد الشاعر الجاهلي في دفاعه عن الخيام
التي يثير الحرب العوان من أجلها ويستमित في الدفاع عنها.

وقد عبّر الشعراء، الذين غادروا ديارهم، عن شوقهم الى تلك الديار وبكوا
لبعدهم عنها كما فعل أبو فراس في القدماء وشوقي في المحدثين حين يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغيب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخلُ حِسي

إنّ وطنه لم يبرح من خياله ولن تلهيه عنه جنّات النعيم .

والشعر الوطني كثير في الأدب العربي لا يمكن حصره في دراسة أو عرضه في صفحات، وإتّما نشير الى أن الوطن العربي قد مرّت به هزّات عنيفة على مرّ الأجيال، فقد غادر العرب الأندلس بما فيها من قصور بنوها وبما تمتاز به من مناخ، فبكوها بكاءً لا ينقطع ورثوها في أشعارهم . وقد نكب العرب بهجمات الترك والمغول والتتار، فهجروا ديارهم ومدحوا أوطانهم مديحًا اختلطت فيه المدامع بالاشواق والتنهّدات . ثم هجمت على ديارهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين واحتلّت جزءًا من أرضهم، فهجروا وسافروا وتغرّبوا . وقد عادت هذه الجيوش مرّة أخرى باسم الحضارة والمدنيّة والانتداب، فهاجر الأحرار الى خارج أوطانهم وأرسلوا مديحهم في الوطن وحبّ الديار، فجاء ثناء عاطفًا على النيل ودجلة وبردى . وما لبث الحكم التركي أن أطلّ عليهم فضاقت بهم الأرض من جديد وهاجروا إلى ديار العالم الجديد، ولكنّ قلبهم ظلّ عالقًا بصخور لبنان وينايع الشام . أما المأساة الأخيرة التي فجرت أشعارهم فكانت نكبة أهل فلسطين التي كانت وما زالت معينهم الذي لا ينضب في التعبير .

٢ - مديح البلدان

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر ومدن وبلدان معيّنة فامتدحوها بشعرهم، وسالت فيها عواطفهم حبًّا وإعجابًا وحنينًا . فمالوا الى مكّة والمدينة، وقالوا فيهما شعراء هو أقرب الى الشعر الديني لما فيه من تقديس وإقرار بفضلهما في ولادة النور والهدى . وقال الشعراء في مدينة بغداد شعراء كثيرًا لأنّها ظلّت طويلًا موطن الملك ومحطّ الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال عدّة قرون، فقال فيها ابن زريق :

هيّات بغداد الدنيسا بأجمعها عندي وسكان بغداد همّ الناسُ

وقيل الشعر الكثير في فضائل مدينة حلب ودمشق ومصر وغيرها من البلدان، ولو جمع الشعر الذي قيل لزيد على ديوان كبير. وقد اشتهر الصنوبري بمدح البلدان، فأشاد بحلب ووصفها بقصيدة طويلة ذاكراً جامعها وسروها وساحاتها وميادينها وحراراتها حيث يقول فيها:

فَاخِرِي يَا حَلِبُ الْمَدُّ نَ يَزِدُ جَاهِكِ جَاهَا
فَلِعَمْرِي إِنْ تَسَكُ الْمَسْدُ نُ رَخَاخاً كُنْتِ شَاهَا

فهو يرى أنها أجمل مدن العالم، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية هي رخاخ فيه. ثم يمتدح دمشق فيرى فيها الدنيا بأسرها حين يقول فيها:

صَفَّتْ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَاكِنِيهَا فَلَسْتُ تَرَى بغيرِ دِمَشْقَ دُنْيَا

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك، فأثنوا على ما رأوا فيها داخل الوطن وخارجه. فنظم شوقي شعراً في مدح باريس، والنيل، وبردى، ودمشق، وزحلة، ولبنان، والآستانة وأسبانيا. قال في بردى قاصداً دمشق:

جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلَقَّاكَ دُونَ الْخَلْدِ رَضْوَانُ
وَقَالَ فِي لَبْنَانَ وَعَاصِمَتِهِ بَيْرُوتَ، وَقَدْ جَعَلَهُمَا مِنْ أْبْدَعِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ:

لَبْنَانَ وَالْخَلْدَ اخْتَرَعَ اللَّهُ لَمْ يَوْسَمُ بِأَرْوَغٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
هُوَ ذِرْوَةٌ فِي الْحَسَنِ غَيْرُ مَرْوَمَةٍ وَذَرَا الْبِرَاعَةَ وَالْحَجْسِي بَيَسْرُوتُهُ

وقال في مدينة « زحلة » مسقط رأس زميله خليل مطران مكنياً عنها « بجارة الوادي » .
يَا جَارَةَ الْوَادِي طَرِبْتُ وَعَادَنِي مَا يَشْبَهُ الْأَحْلَامَ مِنْ ذَكَرَاكِ

ومدح كثير من شعرائنا مدناً في البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ومصر، كما مدح شعراء المهجر مولد عبقريتهم، فعاجوا بالذكرى إلى أوطانهم الأم وصاغوا في حنينهم إليها ذوب عاطفتهم ورقيق شعرهم.

إيليا أبو ماضي

هو إيليا بن ضاهر أبو ماضي (١٨٨٩ م / ١٣٠٦ هـ - ١٩٥٧ م / ١٣٧٧ هـ).
أحد كبار شعراء المهجر. ومن أعضاء الرابطة القلمية فيه. ولد في قرية
«المحيثة» ببلنات، وسكن الإسكندرية، وهاجر إلى أميركا. أصدر جريدة
«السمير». له «تذكار الماضي»، و«الجدول»، و«الخمائل».

وطن النجوم

وَطَنَ النُّجُومِ أَنَا مُنَا حَدِّقْ أَتَذْكُرُ مَنْ أَنَا؟
الْمَحْتِ فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ فَتَى غَسْرِيْرًا أُرْعَنَا؟
جَذْلَانِ يَمْرَحُ فِي حُقُولِكَ كَالنَّيْمِ مُدْتَدِنَا
يَتَسَلَّقُ الْأَشْجَارَ لَا ضَجْرًا يُجِيسُ وَلَا وَتْسِي
وَيَعُودُ بِالْأَغْصَانِ يَبْرِيهَا سِيُوقْنَا أَوْ قَنَّا
وَيَخُوضُ فِي وَحْلِ الشَّيْءِ مُتَهَلِّلًا مُتَيَمِّنَا
لَا يَتَّقِي قَرَّ الْعَيْوَنِ وَلَا يَخَافُ الْأَلْسُنَا
وَلَكَمْ تَشِيطَنَ كَيْ يَسْذُورَ الْقَوْلُ عَنْهُ تَشِيطْنَا

دُنِيَاهُ كَانَتْ هَاهُنَا
 فَاضَتْ جَدَاوِلَ مِنْ سَنَا
 مَاجَتْ مَوَاكِبَ مِنْ مُنَى
 غَنَى بِمَجْدِكَ فَسَاغَتْنِي
 مِنْ رَبُّوعِكَ لِلدُّنَى
 وَصَفَّقْتَ لِي الْمُنْحَنَى؟
 وَبِالسُّهُورِ وَبِالْفَنَا
 حَضَارَةٌ وَتَمَدُّنَا
 لِلصَّبْحِ فِيكَ مُؤَدَّنَا
 ذَرَاكَ كَيْسَلًا تَحْزَنُنَا
 بِالضِّيَاءِ الْأَعْيُنَا
 سِحْرًا لَطِيفًا لَيْسَا
 زَنْبَقًا أَوْ سَوْسَنَا
 لِلْعُصْنِ أُنْقَلَبَهُ الْجَنَى
 فِي الْأَرْضِ يَنْشُدُ مَسْكَنَا
 رَحْلَهُ وَتَسْوِطَنَا
 فَكُنْتَ أَنْتَ الْأَحْسَنَا

أَنَا ذَلِكَ الْوَلَدُ الَّذِي
 أَنَا مِنْ مِيَاهِكَ قَطْرَةٌ
 أَنَا مِنْ تُرَابِكَ ذَرَّةٌ
 أَنَا مِنْ طُيُورِكَ بُلْبُلٌ
 حَمَلُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشَاشَةِ
 كَمْ عَاتَقْتُ رُوحِي رُبَاكَ
 لِلأَرْزِ يَهْزَأُ بِالرَّيَّاحِ
 لِلْبَحْرِ يَنْشُرُهُ بُسُوكَ
 لِلَّيْلِ فِيكَ مُصَلِّيَا
 لِلشَّمْسِ تُبْطِئُ فِي وَدَاعِ
 لِلْبَدْرِ فِي نَيْسَانَ يَكْحَلُ
 قَيْدُوبٌ فِي حَسَدِ الْمَهَى
 لِلْحَقْلِ يَسْرَتَجِلُ الرِّوَايِعُ
 لِلْعُشْبِ أُنْقَلَبُ النَّسْدَى
 عَاشَ الْجَمَالَ مُشَرِّدًا
 حَتَّى أَنْكَشَفْتَ لَهُ فَأَلْقَى
 وَاسْتَعْرَضَ الْفَنُّ الْجِبَالَ

★ ★ ★

لمصر أم لربوع الشام

لحافظ إبراهيم (*)

لِمِصْرَ أُمِّ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ
خِذْرَانٍ لِلضَّادِ لَمْ تُهْتِكِ سُورُهُمَا
أُمُّ اللُّغَاتِ غِداةُ الفَخْرِ أُمُّهُمَا
أَيْرُعْبَانَ عَنِ الحُسْنَى وَيَتْنُهُمَا
إِذَا أَلَمَّتْ بِوَادِي النِّيلِ نَسَارِلَةٌ
وَإِنْ دَعَا فِي ثَرَى الأَهْرَامِ ذُو أَلَمِ
لَوْ أَخْلَصَ النِّيلُ والأَرْدُنُّ وَدُهُمَا
نَسِيمَ لَبْنَانَ كَمْ جَادَتْكَ عَاطِرَةٌ
فِي الشَّرْقِ والغَرْبِ أَنْفَاسٌ مُسْعِرَةٌ
لَوْلا طِلَابُ العُلَى لَمْ يَبْتَغُوا بَدَلًا
بِأَرْضِ كَوْلَمِبِ أَبْطالِ غَطَارِفَةٍ

(*) سبق التعريف به .

(١) خدران للضاد: موطنان للغة العربية .

(٢) كولمب: أي أميركا .

لَمْ يَحْمِيهِمْ عِلْمٌ فِيهَا وَلَا عَسَدَةٌ
 اسْطُولُهُمْ أَمَلٌ فِي الْبَحْرِ مُرْتَحِلٌ
 لَمْ تَبْدُ بَارِقَةٌ فِي أَفْقٍ مُتَّجِعٍ
 مَا عَابَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قَدْ نُيِّرُوا
 رَادُوا الْمَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا
 أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُتَّجِعٍ
 سَعَوْا إِلَى الْكَسْبِ مَحْمُودًا وَمَا فِتْنَتْ
 فَأَيِّنَ كَانَ الشَّامِيُّونَ كَانَ لَهَا
 هُدًى يَدِي عَنْ بَنِي مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ
 سِوَى مِصْرٍ تَحَامَى وَرَدَّهُ النَّوْبُ
 وَجَيْشُهُمْ عَمَلٌ فِي الْبَرِّ مُعْتَرِبُ
 إِلَّا وَكَانَ لَهَا بِالشَّامِ مُرْتَقِبُ
 فَالشُّهْبُ مَنثورَةٌ مَذُ كَانَتِ الشُّهْبُ
 إِلَى الْمَجْرَةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا
 مَدُّوا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَانْتَدَبُوا
 أُمَّ اللُّغَاتِ بِذَاكَ السَّعْيِ تَكْتَسِبُ
 عَيْشٌ جَدِيدٌ وَقَضْلٌ لَيْسَ يَحْتَجِبُ
 فَصَافِحُهَا، تَصَافِحُ نَفْسَهَا الْعَرَبُ

★ ★ ★

دمشق يا جبهة المجد

شَمَمْتُ تُرْبِكَ لَا زُلْفَى وَلَا مَلَقَا
 وَمَا وَجَدْتُ إِلَى لُقْيَاكِ مُعْطَفَا
 كُنْتُ الطَّرِيقَ إِلَى هَارٍ تُنَازِعُهُ
 وَكَانَ قَلْبِي إِلَى رُؤْيَاكِ بِصَاوِرَتِي
 شَمَمْتُ تُرْبِكَ أَسْتَفُ الصَّبَا مَرِحَا
 وَسِرْتُ قَصْدَكَ لَا كَالْمُشْتَهَى بَلَدَا
 وَسِرْتُ قَصْدَكَ لَا خِيَا وَلَا مَذَقَا^(١)
 إِلَّا إِلَيْكَ وَلَا أَلْفَيْتُ مُفْتَرَقَا
 نَفْسٌ تَسُدُّ عَلَيْهِ دُونَهَا الطَّرْقَا
 حَتَّى أَتَهَمْتُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ وَالْحَدَقَا
 وَالشَّمْلَ مُؤْتَلِفَا وَالْعِقْدَ مُؤْتَلِقَا^(٢)
 لَكِنْ كَمَنْ يَتَشَهَّى وَجْهَ مَنْ عَشِقَا

(١) الخب: الخداع. المذق: المغشوش.

(٢) استاف: أشم.

قَالُوا: « دِمَشْقُ » و« بَغْدَادُ » فَقُلْتُ هُمَا
 مَا تَعْجَبُونَ؟ أَمِنْ مَهْدَيْنِ قَدْ جُمِعَا
 أَمْ صَامِدَيْنِ يَرَبَّانِ الْمَصِيرَ مَعَا
 يَهْدُهُدَانِ لِسَانًا وَاحِدًا وَدَمًا
 « دِمَشْقُ » عِشَّتْكَ رَيْعَانَا وَخَافِقَةٌ
 وَهِيَ أَنَا وَتَيْدِي جِلْدٌ وَسَالِفِي
 وَأَنْتِ لَمْ تَبْرَحِي فِي النَّفْسِ عَالِقَةٌ
 تَمَسُوجِينَ ظِلَالَ الذِّكْرِيَاتِ هَوَى

فَجَزَّ عَلَى الْغَدْرِ مِنْ أُمْسِيهِمَا أَنْبَقَا
 أَمْ تَوَامِينِ عَلَى عَهْدَيْهِمَا أَنْفَقَا
 حَبًّا، وَيَقْتَسِمَانِ الْأَمْنَ وَالْفَرْقَا
 صِنُورًا وَمُعْتَقِدًا حُرًّا وَمُنْطَلَقَا
 وَلِمَّةً وَالْعَبُونَ السُّودَ وَالْأَرْقَا
 تَلَجَّ وَوَجْهِي عَظْمٌ كَادَ أَوْ عُرْقَا
 دَمِي وَلَحْمِي وَالْأَنْفَاسَ وَالرَّمَقَا
 وَتُسْعِدِينَ الْأَسَى وَالْهَمَّ وَالْقَلَقَا

محمد مهدي الجواهري

★ ★ ★

وقال أحمد شوقي في دمشق:

أَلَسْتُ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظِيئِرًا
 وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
 لَهَا مِنْ سَرْحِكِ الْعُلُويِّ عِرْقُ^(٢)
 وَأَرْضُكَ مِنْ حِلْيِ الْمَاضِي كِتَابُ^(٣)
 غُبَارُ حَضَارَتَيْهِ لَا يُشَقُّ
 لَهْ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعِرسٌ

وَمُرْضَعَةُ الْأُبُوَّةِ لَا تُعَسَّقُ^(١)
 وَأَرْضُكَ مِنْ حِلْيِ الْمَاضِي كِتَابُ^(٣)
 غُبَارُ حَضَارَتَيْهِ لَا يُشَقُّ
 لَهْ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعِرسٌ

★ ★ ★

(١) الظئر: المرأة المرضعة.
 (٢) السرح: نوع من الشجر العالي.
 (٣) الرق: الجلد الذي يكتب عليه.

أبيات رائعة في حب الوطن ومدحه

أحِبُّ بِلَادَ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَى دَارِ سَلَمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادَ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي تُرَابُهَا
أحمد بن يحيى

★ ★ ★

بَلَدٌ صَحِيحَتْ بِهِ الشَّبِيَّةُ وَالصَّبَا وَتَبَسَّتْ ثُوبَ الْعَيْشِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَفْتَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ
ابن الرومي

وَحَبَسَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارِبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عُهُودَ الصَّبِيِّ فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَ
ابن الرومي

★ ★ ★

إِذَا دَتَّتِ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيَمَا إِذَا دَتَّتِ الْخِيَامُ
فَلَمَحُ الْعَيْنِ دُونَ الْحَيِّ شَهْرٌ وَرَجَعُ الطَّرْفِ دُونَ السَّيْرِ عَامٌ

بِالشَّامِ قَوْمِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
حَتَّى تُبَلِّغُنِي أَقْصَى خُرَاسَانَ
أبو تمام

★ ★ ★

وطني لو شغلت بالخلد عنه
وهقا بالفؤاد في سلسيل
نارعتني إليه في الخلد نفسي
ظما للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغيب عن جفوني
شخصه ساعة ولم يخل حسني
شوقي

★ ★ ★

وتسمة كشميم الخلد قد حملت
هلا أراي بيذاك الحي مجتمعا
ريا الأزهير من ميت وأجرع^(١)
بأهل ودي من قومي وأشياعي
محمود البارودي

★ ★ ★

هيات بغداد الدنيا بأجمعها
عندي وسكان بغداد هم الناس
ابن زريق

★ ★ ★

سقى الله بغداد من بلدة
حوت كل ما لشد للأنفس

★ ★ ★

(١) الميت: ج الميتاء، وهي الأرض اللينة. الأجرع: الأرض السهلة.

تَنَامُ بِهَا عَيْنُ الْغَرِيبِ وَلَا تَرَى غَرِيبًا بِأَرْضِ الشَّامِ يَطْمَعُ فِي الْعَمَضِ

★ ★ ★

كَأَنَّهَا الْجَنَّةُ الَّتِي جَمَعْتَ مَا تَشْتَهِي الْأَعْيُنُ وَالْأَنْفُسُ

كشاجم

★ ★ ★

أَنَا أَخِي حَلْبَا دَا رَا وَأَخِي مَنُ حَمَامَا

أَيُّ حُسْنٍ مَا حَوَّثُهُ حَلْبًا أَوْ مَا حَوَّاهَا

فَأخِيرِي يَا حَلْبُ الْمَدِّ نَ يَزِدُ جَاهُكَ جَاهَا

فَلَعَمْرِي إِنْ تَكُ الْمَدُّ نُ رَخَاخَا كُنْتَ شَاهَا (١)

السنوبري

★ ★ ★

صَفْتُ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَاكِينِهَا فَلَسْتُ تَرَى بِغَيْرِ دِمَشْقَ دُنْيَا

السنوبري

★ ★ ★

قَالَ الرَّفَاقُ، وَقَدْ هَبَّتْ حَمَائِلُهَا الْأَرْضُ دَارَ لَهَا الْفَيْحَاءِ بُسْتَانُ

جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخُلْدِ رِضْوَانُ

شوقي

★ ★ ★

(١) أي هي في نظره شاه الشطرنج، والمدن الباقية رخاخ فيه.

لُبْنَانُ وَالْحُلْدُ أَخْتِرَاعُ اللَّهِ لَمْ يُوسَمَ بِأَزِينٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
هُوَ ذُرْوَةٌ فِي الْحُسْنِ غَيْرُ مَرُومَةٍ وَذُرَا بَسْرَاعَةٍ وَالْحِجَى تَيْسُرُوتُهُ
شوقي

★ ★ ★

حَتَّى بَدَتْ حَلَبَ حَسَنَاءَ لَا يَسَّةَ ثَوْبًا أَغْرَّ بِوَشِيِ اللَّهِ مُرْدَانَا
تَمَنَّلْتُ لِسِي سُلْطَانَا وَقَلَعْتُهَا تَاجِبًا يَتِيَهُ بِهِ عِزًّا وَسُلْطَانَا
تَحْكِي حَدَائِقُهَا حَقَّتْ مَسَازِلُهَا بَحْرًا سَحِيقَ الْمَدَى بِالسُّفْنِ مَلَانَا
عادل الغضبان

★ ★ ★

القسم الثالث

متفرقات مدحية

وقال الحطيئة لِعُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وكان حبسه لاستعداد
الزبيرِ قان عليه :

مَادَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَخٍ زَغَبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَالًا وَلَا شَجَرًا^(١)
غَيَّبْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغْفِرْ، عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، يَا عُمَرَ^(٢)
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلَقْتَ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرِ^(٣)
لَمْ يُؤْثِرْكَ بِهَا إِذْ قَدَّمَوكَ لَهَا لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِهَا الْأَثَرُ^(٤)
فَامْتَنُ عَلَى صَيِّتَةِ الرَّمْلِ مَسْكَنَهُمْ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ يَغْشَاهُمْ بِهَا الْقِرْرُ^(٥)
أَهْلِي، فِدَاؤُكَ، كَمْ تَيْتِي وَبَيْنَهُمْ مِنْ عَرْضِ دَوِّيَّةٍ يَفْنَى بِهَا الْحَجَرُ^(٦)

★ ★ ★

- (١) ذر مرخ: اسم موضع. زغب الحواصل: كناية عن أنهم ما زالوا أطفالاً.
(٢) كاسبهم: من يكسب قوتهم، أي: والدم. مظلمة: بئر مظلمة، وهي سجنه.
(٣) يعني بالصاحب أبا بكر الصديق. يقال: ألقوا إليه مقاليدهم: إذا قلدهم أمورهم. النهي: جمع
نهية: العقل.
(٤) لم يؤثرك بها: لم يخصوك بها، من آثره إثارة: اختاره وفضله. الأثر جمع الأثرة: الاستئثار.
(٥) من عليه: أنعم عليه نعمة طيبة. الأباطح: جمع الأبطح: المكان المنسج يمر به السيل، فيترك فيه
الرمل والحصى الصغار. يغشاهم بها القيرر: يعيبهم بها البرد. القيرر: جمع القيرة: البرد.
(٦) الدويّة: القلاة.

من قصيدة للسيد الرضي الموسوي يمدح
بها امير المؤمنين الطائع لله

بَلَوْتُ وَجَرَّبْتُ الْأَخْلَاءَ مُدَّةً فَأَكْثَرُ شَيْءٍ فِي الصَّدِيقِ مَلَالُ
وَمَا رَاقِنِي مِمَّنْ أَوْدٌ تَمَلَّسَقُ وَلَا غَرَّنِي مِمَّنْ أَحْسَبُ وَصَالُ
وَمَا صَحْبُكَ الْأَذْتُونَ إِلَّا أَبَاعِدُ إِذَا قَلَّ مَالٌ أَوْ نَبَتْ بِكَ حَالُ
وَمَنْ لِي بِخُلِّ أَرْتَضِيهِ وَلَيْتَ لِي يَمِينًا تُعَاطِيهَا الْوَفَاءُ شِمَالُ
تَمِيلُ بِي الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ شَهْوَةٍ وَأَيْنَ مِنَ النُّجْمِ الْبَعِيدِ مَنَالُ
وَتَسْلُبُنِي أَيْدِي النَّوَائِبِ نُرُوتِي وَلِي مِنْ عَفَافِي وَالتَّقْنَعِ مَالُ
أَنَا الْمَرْءُ لَا عِرْضِي قَرِيبٌ مِنَ الْعِدَى وَلَا فِي لِبَاغِي عَلَيَّ مَقَالُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لابن نباتة السعدي في سيف الدولة

قَدْ جُدْتَ لِي بِاللَّهِ حَتَّى ضَجِرْتُ بِهَا وَكِدْتُ مِنْ ضَجْرِي أَثْنِي عَلَى الْبُخْلِ
إِنْ كُنْتُ تَرَعْبُ فِي بَدْلِ النَّوَالِ لَنَا فَمَا خُلِقَ لَنَا رَغْبَةٌ أَوْ لَا فَلَا تُنْسَلِ
لَمْ يُنْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْ مِلَّةً تَرَكَتَنِي أَصْحَابُ الدُّنْيَا بِلا أَمَلِ

★ ★ ★

وله ايضاً فيه

سُيُوفُكَ أَمْضَى فِي النَّفُوسِ مِنَ الرَّدَى وَخَوْفُكَ أَمْضَى مِنْ سُيُوفِكَ فِي الْعِدَى
فَتَى يَتَحَامَى لَذَّةَ النَّوْمِ جَفْنُهُ كَانَ لَذِيذَ النَّوْمِ فِي جَفْنِهِ قَدَى
وَمَنْ سَهَرَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ جَفُونُهُ رَعَى طَرْفُهُ فِي جَوْهَا أَنْجَمَ الْعَلَى
فَلَيْسَ يَنَامُ الْقَلْبُ وَالْجَفْنُ سَاهِرٌ وَلَا تُغْمَدُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ مُنْتَضَى

★ ★ ★

ومن قصيدة لمحمد بن عبدالله

السلامي في الصاحب

أَمَا لَكَ غَيْرُ بَأْسِكَ مِنْ عَنَادٍ وَلَا غَيْرُ الْعِظَائِمِ مِنْ رُكُوبِ
تَرْوِضُ مَصَاعِبَ الْأَيَّامِ قَهْرًا وَتَحْمِلُهَا عَلَى عَوْدِ صَلِيبِ
وَتَبْذُلُ دُونَ تَاجِ الْمُلْكِ نَفْسًا مَيِّمَةً بِتَنْفِيسِ الْكُفْرُوبِ
وَجَرَّيْتَ الْمُلُوكَ فَمَا أَصَابَتْ لِدَاءِ الْمُلْكِ غَيْرَكَ مِنْ طَيْبِ

★ ★ ★

ولأبي الفتح البستي في محمد بن حامد

بِنَفْسِي أَخٌ نَفْسُهُ أُمَّةٌ وَتَسْدِيرُهُ فِي الْوَرَى قَيْلَقُ
أَخٌ بَسَابُ إِخْتِسَانِهِ مُطْلَقُ وَبَابُ إِتْسَاءَتِهِ مُغْلَقُ

مُحَمَّدُ أَنْتَ قِرَى نَاطِرِي فَكَيْفَ إِذَا غِيَبْتَ لَا أَقْلِقُ
رَهْمَتِكَ قَلْبِي وَحُكْمُ الْقُلُوبِ إِذَا رُهِنْتَ أَنَّهُمَا تُغْلِقُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لأبي الحسن عمر النوقاني في الأمير خلف

لَكَ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا وَلَكِنْ تَلَا حِظُّهَا بِعَيْنَيْكَ أَحْتَقَارَا
تَكْبَرُ ذَا الزَّمَانِ عَلَى بَيْتِهِ فَعِشْ حَتَّى تُعَلِّمَهُ الصَّغَارَا
وَصَارَ صِغَارُهُمْ فِيهِ كِبَارَا فَدُمُ حَتَّى تَرُدَّهُمْ صِغَارَا
خَدِمْتُ لَكَ الْمُلُوكَ أَرُوضُ نَفْسِي لِأَمْنِ تَحْتَ خِدْمَتِكَ الْعِشَارَا
وَلَوْ كَانَتْ لَنَا الدُّنْيَا جَعَلْنَا لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا نِشَارَا

★ ★ ★

ومن قصيدة لابن مطروح في الوزير عماد الدين

وَهَبْتُ عَلَيْنَا نَفْحَةَ عَنَبْرِئَةٍ كَعَرَفِي عِمَادِ الدِّينِ حِينَ تَقَابَلُهُ
فَقُمْتُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَنْشِدُ مَدْحَهُ وَقَدْ سَبَقْتَنِي قَبْلَ ذَلِكَ فَوَاضِلُهُ
تَكَافَأَ فِي الْإِحْسَانِ شِعْرِي وَمَدْحُهُ وَلَكِنْ بِحَصْلِ السَّبْقِ فَازَتْ أَسْمِلُهُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لحلقة بن حليفة الاقطع مولى
قيس بن ثعلبة يمدح قومه

عَذَابًا عَلَى الْأَفْوَاهِ مَا لَمْ يَذُقْهُمْ عَدُوٌّ وَيَسْأَلُافْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَخْلُو
عَلَيْهِمْ وَقَارُ الْحِلْمِ حَتَّى كَانَمَا وَلَيْدُهُمْ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ
إِذَا اسْتَجْهَلُوا لَمْ يَغْرِبِ الْحِلْمُ عَنْهُمْ وَإِنْ آتَرُوا أَنْ يَجْهَلُوا عَظَمَ الْجَهْلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْقَتْلَ غَالٍ إِذَا رَضُوا وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْطِنٍ رَخِصَ الْقَتْلُ
إِذَا طَلَبُوا دَحْلًا^(١) فَلَا الدَّخْلُ فَائِتٌ وَإِنْ ظَلَمُوا أَكْفَاءَهُمْ بَطَلَ الدَّخْلُ

★ ★ ★

وقالت لبللى الأخيلية في الحجّاج

أَحْجَّاجُ إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ غَايَةَ يُقْصِرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَدَاهَا
إِذَا وَرَدَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِيهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنْ الدَّاءِ الْعِيَاءِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاءَ ثَنَاهَا
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ صَوْتَ كَتِيْبَةٍ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النَّزُولِ قِرَاهَا

★ ★ ★

(١) ناز.

وقال خالد بن جعفر الكلابي يمدح النعمان بن المنذر

أَخْلَاقُ مَجْدِكَ جَلَّتْ^(١) مَا لَهَا خَطَرٌ^(٢) فِي الْبَاسِ وَالْجُودِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
مَتَوَجِّحٌ بِالسَّمْعَالِيِّ فَوْقَ مَفْرِقِهِ وَفِي الْوَعَى ضَيْعَمٌ فِي صُورَةِ الْقَمَرِ
إِذَا دَجَا الْخَطْبُ جَلَّاهُ بِصَارِمِهِ كَمَا يُجَلَّى زَمَانُ الْمَحَلِّ بِالسَّمَطْرِ

★ ★ ★

وقال أبو الحسن أحمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ لَنَا يَدُهُ لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَحْرُ وَالْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ عِزَّتِهِ تَضَاءَلِ الْأَنْوَرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
يَنَالُ بِالسُّلْطَنِ مَا يَعْينَا الْعَيْنَانُ بِهِ وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ

★ ★ ★

وقال آخر في قوم كرام

إِذَا رَكِبُوا زَادُوا الْمَوَاكِبَ بِهَجَّةٍ وَإِنْ جَلَسُوا كَانُوا صُدُورَ الْمَجَالِسِ

★ ★ ★

(١) جلَّتْ: سبقت.

(٢) الخطر: المثل والنظير.

وقال أبو نواس في مدح الخصيب

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيَّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا فَاتَهُ جُودٌ وَلَا ضَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

★ ★ ★

وقال آخر في كريم

إِنَّ آلِهَاتِ النَّبِيِّ جَادَ الْكِرَامُ بِهَا مَطْرُوقَةٌ وَتَدَى كَفَيْكَ مُبْتَكِرُ
مَا زِلْتَ تَسْبِقُ حَتَّى قَالَ حَايِدُكُمْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْعَلِيَاءِ مُخْتَصِرُ

★ ★ ★

وقال مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن يزيد

تَلَقَى الْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتْهَا كَالسَّيْلِ يَتَدَفُّ جُلْمُودًا بِجُلْمُودِ
تَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ شَحَّ الضَّيِّينُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

★ ★ ★

وقال الغانمي في كريم

سَلَكْتَ طَرِيقَةَ سَيْبِكَ الْأَنْوَاءِ وَتَبَسَّمْتَ عَنْ سَيْبِكَ الْعَلِيَاءِ
فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ لِمَجْدِكَ آيَةٌ شَهِدَتْ بِصِحَّتِهَا لَكَ الْأَعْدَاءُ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح وليّ الدولة

عَدْتِكَ الْخَادِثَاتُ إِلَى عِدَاكََا فَمَا لِلنَّاسِ مَعْنَى مَا عَدَاكََا
فَأَنْتَ سَتَنْتَ لِلنَّاسِ الْمَعَالِي وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا فِيهَا مَدَاكََا
خَلَقْتَ مِنَ الْعَلَا وَالْمَجْدِ حَسَى تَضَمَّنْتَ الْفَضَائِلَ بُرْدَتَاكََا
فَلَوْ كَانِ الْعَلَا وَالْمَجْدُ شَخْصَا يَرَاهُ النَّاطِرُونَ لَكُنْتَ ذَاكََا
وَتَسْمَعُ مِنْ كِرَامِ النَّاسِ ذِكْرَا وَتَنْظُرُ مَا تَرَى أَحَدَا سِوَاكََا
فَمَا أَكْتَحَلْتَ بِنُورِ السَّعْدِ يَوْمَا مِنْ الدُّنْيَا سِوَى عَيْنِ تَرَكََا

★ ★ ★

وقال غيره في رجل فريد

عَقِمَ النِّسَاءَ فَلَا يَلِدْنَ نَظِيرَه فَتَظِيرُه فِي الْعَالَمِينَ قَلِيلُ
هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

★ ★ ★

من قصيدة لأبي بكر الخوارزمي في عضد الدولة

غَرِيبٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَجِدَانٌ مِثْلِهِ وَأَعْرَبُ مِنْهُ بَعْدَ رُؤْيِيهِ الْفَقْرُ
فَلَا حُرًّا إِلَّا وَهُوَ عَبْدٌ لِحُودِهِ وَلَا عَبْدًا إِلَّا وَهُوَ فِي عَدْلِهِ حُرُّ
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرَ حَلَّةً وَفِينَا لِأَنَّ جُزْنَا عَلَى تَابِهِ كِبَرُ

ومن قصيدة لعبدالله الرقاشي في

ابي سعيد احمد بن شبيب

إِنَّ الْفَتْوحَ عَلَى يَدَيْكَ تَتَابَعْتُ كَتَّابِعِ الْأَنْسَاءِ فِي نَيْسَانَ
خَفَقْتُ بُنُودَكَ حَوْلَهُمْ فَكَأَنَّمَا طَارَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ الْخَفَقَانِ
وَلَيْنَ حُسِدَتَ فَلَسْتُ أَوْلَ سَابِقِ يَرْمِيهِ بِالسَّبْغَاءِ الْأُمِّ وَإِنِّي
إِنَّ الْكَرِيمَ مُحَسَّدًا فِي قَوْمِهِ وَتَرَى الْخَسُودَ مَطِيَّةَ الْأَشْجَانِ

★ ★ ★

وللقاضي التنوخي علي بن محمد في مدح احدهم

رِضَاكَ شَبَابٌ لَا يَلِيهِ مَشِيبٌ وَسُخْطُكَ ذَا لَا لَيْسَ مِنْهُ طَيْبٌ
كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ النَّفُوسِ مُرَكَّبٌ فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ النَّفُوسِ حَيْبٌ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح بعضهم

وَقَضَى لَهُ بِالْفَضْلِ أَهْلُ زَمَانِهِ بِشَهَادَةِ الْأَعْسَدَاءِ وَالْحُسَّادِ
وَسَمِعْتُ أَخْبَارَ النَّدَى عَنْ كَفِّهِ فَعَرَفْتُ فِيهَا صِيحَةَ الْإِسْنَادِ
مِنْ مَعَشَرٍ بِيضِ الْوُجُوهِ أَكْرَامِ يَوْمَ السَّمَاحِ وَفِي الْوَعَى أَنْجَادِ

رَضَعُوا لَبَانَ الْمَجْدِ فِي حِجْرِ الْعَلَى فَعَلُوا عَلَى الْأَكْفَاءِ وَالْأَسْدَادِ
قَوْمٌ إِذَا سَفَرُوا حَبِيتَ وُجُوهُهُمْ لِلنَّاطِرِينَ أَهْلِيَةَ الْأَعْيَادِ

★ ★ ★

ومن قصيدة لعبد السلام بن الحسين المأموني
في أبي الحسن المزني

طَبَعَتْ مُزَيَّنَةً مِنْهُ^(١) عَضْبًا مَا لَهُ فِي غَيْرِ هَامَاتِ الْأَسْوَدِ قَرَارُ
أَرَاؤُهُ بِيضُ الطَّبْسى وَحَدِيثُهُ رَوْضُ الرَّبْسى وَيَمِينُهُ تَيَّارُ
ضُمَّتْ عَلَى الدُّنْيَا بَدَائِعُ لَفْظِهِ فَكَأَنَّهَا زَنْدٌ وَهَنَّ سِوَارُ
وَإِذَا الْعُلُومُ اسْتَبَهَمَتْ طُرُقَاتُهَا فَذَوُوهُ أَعْلَامٌ لَهَا وَمَنَارُ
عَزَمَاتُهُمْ قُضِبٌ وَقَيْضٌ أَكْفُهُمْ سَحْبٌ وَيَيْضٌ وَجُوهِيهِمْ أَقْمَسَارُ
يَا مَنْ إِذَا أَطْرَى الْقَبَائِلَ شَاعِرٌ صَلَّتْ عَلَى آيَاتِهِ الْأَشْعَارُ
فَارْحَمَ بِمَنْكَكَ السَّمَاءَ أَمَا تَرَى لِسِوَاكَ فِي خِطَطِ النَّجُومِ جِوَارُ
وَالْأَرْضُ مُلْكُكَ وَالْوَرَى لَكَ غِلْمَةٌ وَالسُّمَرُ عِبْدُكَ وَالْعَلَى لَكَ دَارُ

★ ★ ★

(١) مرينة: قبيلة الممدوح والضمير في منه عائد إليه.

للقاضي أبي محمد بن عطية

كَمْ صَدَمَةٍ لَكَ فِيهِمْ مَشْهُورَةٌ غَصَّ الْعِزَّاقُ بِذِكْرِهَا وَالشَّامُ
فِي مَازِقٍ فِيهِ الْأَيْنَةُ وَالطَّبِيُّ بَرَقَ وَتَفَسَّعَ الْعَسَادِيَاتِ عَمَامُ
وَالضَّرْبُ قَدْ صَنَعَ النَّصُورَ كَأَنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَاءِ الْحَدِيدِ ضِرَامُ
وَالطَّعْنُ يَبْتَعِثُ النَّجِيعَ كَأَنَّمَا تَنْشَقُّ عَنْ زَهْرِ الشَّقِيقِ كِمَامُ

★ ★ ★

لابن الرومي

أَرَاؤكُمْ وَوُجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومُ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِيحُ تَجْلُو الدُّجَى وَالْأَخْرِيَاتُ رُجُومُ

★ ★ ★

لآخر

نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ يَتَسَابِقُونَ إِلَى قِرَى الضَّيْفَانِ
وَيَكَادُ مَوْقِدُهُمْ يَجْسُودُ بِنَفْسِهِ حُبُّ الْقِرَى حَطْبًا عَلَى النَّيْرَانِ

★ ★ ★

لأبي الشيص الخزاعي

عَشِيقَ الْمَكَارِمِ فَهَوَ مُشْتَعِلٌ بِهَا وَالْمَكْرُمَاتُ قَلِيلَةُ الْمُشَاقِ
وَأَقَامَهُ سَوْقًا لِلثَّنَاءِ وَلَسْمُ تَكُنُّ سُوقُ الثَّنَاءِ تُعَدُّ فِي الْأَسْوَاقِ
بَثَّ الصَّنَائِعِ فِي الْبِلَادِ فَاصْبَحَتْ تُجَبِّي إِلَيْهِ مَحَامِدُ الْأَفَاقِ

★ ★ ★

لأبي حوثة

قَسُومٌ إِذَا اقْتَحَمُوا الْعِجَاجَ رَأَيْتَهُمْ أَسَدًا وَخِلْتِ وَجُوهَهُمْ أَقْمَارًا
لَا يَعْدِلُونَ بِرِفْدِهِمْ عَنِ سَائِلِ عَدَلِ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ أَوْ جَارًا
وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمْ لِمِلْمَةٍ بَدَلُوا النُّفُوسَ وَفَارَقُوا الْأَعْمَارًا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أَحْمَدَ نَارَهَا قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَارًا

★ ★ ★

لمروان بن ابي حفصة في معن بن زائدة

تَجَنَّبَ لَا فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَانَتْ حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلٌ لَا حِسْنَ يُسْأَلُ
تَشَابَهُ يَسُومَاهُ عَلَيْنَا فِأَشْكَالًا فَلَمْ نَكُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيُّسُومُ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمٌ بِأَسِيهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغْرٌ مُحَجَّلُ

تَهْلِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ
كَأَوْلِيهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلُ
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرَلُوا
وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّأْيَاتِ وَأَجْمَلُوا

★ ★ ★

لمحمد بن هانيء في يحيى بن علي بن غلبون

وَكَمَّ جَحْفَلٍ مَجْرٍ قَرَعَتْ صَفَاتَهُ
أَتَشَكَّ بِهَا الْأَسَادُ تَحْتَ زَيْبِهَا
أَتَوَكَّ فَمَا خَرُّوا إِلَى الْبَيْضِ سُجَّدًا
وَلَوْ حَارَبَتْكَ الشَّمْسُ دُونَ لِقَائِهِمْ
سَبَقَتْ الْمَنَائِبَا وَأِقِعَا بِنُفُوسِهِمْ
تَقُودُ الْكُفَاةَ الْمُعَلِّمِينَ إِلَى الْوَعَى
غَزَوْا فِي الدَّرُوعِ السَّابِغَاتِ كَأَنَّمَا
فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا السِّدْمَاءُ مَشَارِبُ
يُودُونَ لَوْصِيغَتْ لَهُمْ مِنْ حِفَاظِهِمْ
وَلَوْ طَعَنْتُ قَبْلَ الرِّمَاحِ قُلُوبَهُمْ
بِصَاعِقَةٍ تَرْقُضُ مِنْهَا الْجَمَاجِمُ
فَطَارَتْ بِهِ عَنِ جَانِبَيْكَ الْقَشَاعِمُ
وَلَكِنَّمَا كَانَتْ تَخِرُّ الْجَمَاجِمُ
لَأَعَجَلَهَا جُنْدٌ مِنَ اللَّهِ هَازِمُ
كَمَا وَقَعَتْ قَبْلَ الْخَوَافِي الْقَوَادِمُ
لَهُمْ فَوْقَ أَصْوَاتِ الْحَدِيدِ هَمَاهِمُ
تُدِيرُ عِيُونًا فَوْقَهُنَّ الْأَرَاقِمُ
وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا النَّفُوسَ مَطَاعِمُ
وَإِقْدَامِهِمْ تِلْكَ السِّوْفُ الصَّوَارِمُ
وَلَوْ سَبَقَتْ قَبْلَ الْأَكْفِ الْمَعَاصِمُ

★ ★ ★

قال النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الأصغر:

إِذَا مَا عَزَّوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ (١)
 وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوقَهُمْ يَهْنَ فُلُوقَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ (٢)
 تُورَثْنَ مِنْ أَيَّامِ يَوْمِ حَلِيمَةَ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرَّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ (٣)
 لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ مِنْ الْجُودِ وَالْأَخْلَامِ غَيْرُ عَوَازِبِ (٤)
 مَحَلَّتُهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوِيْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ (٥)
 رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ (٦)

★ ★ ★

وقال زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان أحد الذين سعوا
في إنهاء حرب داحس والغبراء:

بَلِ أَدَّكَرْنَ خَيْرَ قَيْسٍ كُلِّهَا حَسَبًا وَخَيْرَهَا نَسَائِلًا وَخَيْرَهَا خُلُقًا
 وَذَٰكَ أَحْزَمُهُمْ رَأْيًا إِذَا نَبَأَ مِنَ الْحَوَادِثِ آبَ النَّاسِ أَوْ طَرَقًا

- (١) العصائب: الجماعات.
 (٢) الفلوق: الثلوم - قراع الكتائب: قتال الجيوش.
 (٣) يوم حليلة: أحد أيام العرب التي انتصروا فيها على أعدائهم.
 (٤) الشيمة: الميزة الحسنة - غير عواذب: لا تتغير.
 (٥) محلَّتُهُمْ: أي مسكنهم. ذات الإله: أي بيت المقدس، وهي الأرض المقدسة ومنازل الأنبياء. لا يرجون غير العواقب: أي لا يخافون، وقيل: لا يطلبون إلا عواقب أمورهم، وحسن الجزاء عليها.
 (٦) رقاق النعال: أي منعمون. طيب حجاتهم: أي أعتاء الفروج. يوم السباسب: أي يوم الشعانين.

فَضَّلَ الْجَوَادِ عَلَى الْخَيْلِ الْبَطَاءِ فَلَا
 قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ
 مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا
 لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ
 يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزِقًا^(١)
 وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقًا
 يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالتَّذَى خُلُقًا^(٢)
 أَفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفَّهُ الْأَفْقَا

★ ★ ★

قال زهير بن أبي سلمى في مدح سنان والد هرم:

لَوْ كَانَ يَخْلُدُ أَقْوَامٌ بِمَجْدِهِمْ
 أَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
 قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسِبُهُمْ
 إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا جِنًّا إِذَا غَضِبُوا
 مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعْمٍ
 لَوْ يُوزَنُونَ عَيْارًا أَوْ مَكَايِلَةً
 أَوْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَيَّامِهِمْ خَلَدُوا
 قَوْمٌ بِأَوْلِيهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
 طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
 مُرَّرُؤُونَ بِهَالِيلٍ إِذَا جُهِدُوا^(٣)
 لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَالَهُ حَسِدُوا
 مَالُوا بِرَضْوَى وَلَمْ يَغْدِلْهُمْ أَحَدٌ^(٤)

قال طخيم الأسدي في مدح قوم من أهل الحيرة:

وإني وإن كائنوا نصارى أحبهم
 ورسناح قلبي نحوهم ويتسوق

★ ★ ★

(١) النزق: البطء. والمعنى: أن فضل هرم على الرجال كفضل الجواد على الخيل البطاء.

(٢) على علاته: أي في أسوأ حالاته.

(٣) بهاليل: أسيد - جهدوا: تعبوا.

(٤) رضوى: اسم جبل.

وقال عدي بن زيد بن حمار في مدح بني شيبان:

إِنِّي خَمَدْتُ بَنِي شَيْبَانَ إِذْ خَمَدْتُ نِيرَانُ قَوْمِي وَفِيهِمْ شَبْتِ النَّارِ^(١)
وَمِنْ تَكْرِمِهِمْ فِي الْمَحَلِّ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ^(٢)
حَتَّى يَكُونَ عَزِيزًا مِنْ نَفْسِهِمْ أَوْ أَنْ يَبِينَ جَمِيعًا وَهُوَ مُخْتَارُ^(٣)
كَأَنَّهُ صَدَعٌ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ مِنْ دُونِهِ لِعِتَاقِ الطَّيْرِ أَوْ كَارُ^(٤)

★ ★ ★

قال أحدهم في مدح بني المهلب:

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَائِسًا غَرِيبًا عَنِ الْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ مَحَلِّ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَأَقْنِفَاؤُهُمْ وَإِلْطَافُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي^(٥)

★ ★ ★

قال أبو البرج القاسم بن حنبل المري في مدح زفر بن أبي هاشم بن مسعود بن سنان:

فَلَسُوا أَنَّ السَّمَاءَ دَنَّتْ لِمَجْدِي وَمَكْرُمِيَّةٍ دَنَّتْ لَكُمْ السَّمَاءُ

★ ★ ★

(١) خمدت: أطفئت - شبت: أشعلت.

(٢) المحل: القحط والجذب.

(٣) يبين: يتعد.

(٤) الصدع: صفة للوعل. عتاق الطير: أتواها.

(٥) اقتناؤهم: أي تتبع أثر ما يحتاج إليه.

وقال الحطيئة في مدح قوم:

يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيزَةُ وَالْجِدُّ^(١)
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبْسَا لِأَيِّكُمْ مِنْ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أَوْلِيكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ وَعَدُوا أَوْقَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَسَدُوا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جَلِّ حَادِثٍ مِنْ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
وَيَعْدُنِّي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِاللَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

★ ★ ★

وقال الحطيئة في مدح بني أنف الناقة^(٢):

قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

★ ★ ★

وقالت امرأة من إياد في مدح ابن عمرو:

الْخَيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ هُزِمَتْ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو لَدَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِيهَا^(٣)

(١) الأحلام: العقول. الحفيظة: الحزم.

(٢) أنف الناقة هو جعفر بن قريع بن عوف بن زيد مائة بن تميم.

(٣) الروع: الفزع والخوف. الهيجاء: الحرب.

لَمْ يَبْدِ فُحْشًا وَلَمْ يَهْدِدْ لِمَعْظَمَةٍ وَكُلُّ مَكْرُمَةٍ يُلْقَى يُسَامِيهَا (١)
 الْمُسْتَشَارُ لِأَمْرِ الْقَوْمِ يَحْزِبُهُمْ إِذَا الْهِنَاتُ أَهَمَّ الْقَوْمَ مَا فِيهَا (٢)
 لَا يَرْهَبُ الْجَارُ مِنْهُ غَدْرَةَ أَبَدًا وَإِنْ أَلَمَّتْ أُمُورٌ فَهَوَ كَافِيهَا

★ ★ ★

وقال ابن دارة في مدح عدي بن حاتم الطائي:

تَجِنُّ قَلُوصِي فِي مَعْدٍ وَإِنَّمَا تَلْقِي الرِّبِيعَ فِي دِيَارِ بِنِي تُعَلُّ (٣)
 وَأَبْقَى اللَّيَالِي مِنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حُسَامًا كَنَصْلِ السَّيْفِ سُلٍّ مِنَ الْخَلَلِ
 أَبُوكَ جَوَادٌ لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ وَأَنْتَ جَوَادٌ لَيْسَ تَغْدُرُ بِالْعَزَلِ
 فَإِنْ تَفَعَّلُوا شَرًّا فَمِثْلُكُمْ أَتَقَى وَإِنْ تَفَعَّلُوا خَيْرًا فَمِثْلُكُمْ فَعَلُ

★ ★ ★

وقال حسان بن ثابت في مدح الأنصار:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا (٤)
 سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدِثَةٍ إِنْ الْخَلَائِقَ فَأَعْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ (٥)

(١) يهدد: يبادر. المعظمة: الشيء العظيم. يساميا: يباريها.

(٢) الهنات: الأمور الخسيسة. يحزبهم: يضيق عليهم.

(٣) القلوص: الناقة. معد: العرب.

(٤) حاولوا: راموا - الأشياخ: الأنصار والأتباع.

(٥) السجية: الخلق. البدع: الشيء المستحدث.

لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعٌ
 يَسْمُونَ لِلْحَرْبِ تَبْدُو وَهِيَ كَالْحَاةِ إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا^(١)
 لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا جَزَعٌ^(٢)
 كَانَتْهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ أَسْوَدُ بَيْشَةٍ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعٌ^(٣)

★ ★ ★

وقال أحدهم:

قَتَى مِثْلُ صَفْوِ الْمَاءِ لَيْسَ يَبَاخِلُ عَلَيْكَ وَلَا مُهْدٍ مَلَامًا لِيَبَاخِلِ
 وَلَا قَائِلٍ عَوْرَاءَ تُؤْذِي رَفِيقَهُ وَلَا رَافِعِ رَأْسًا يَعْوِرَاءَ قَائِلِ^(٤)
 وَلَا مُسْلِمٍ مَوْتَى لِأَمْرِ يُصِيبُهُ وَلَا خَالِطٍ حَقًّا مُصِيبًا يَبَاطِلِ
 وَلَا رَافِعِ أَحْدُوثةَ السُّوءِ مُعْجَبًا بِهَا بَيْنَ أَيْدِي الْمَجْلِسِ الْمُتَقَابِلِ
 تَرَى أَهْلَهُ فِي نِعْمَةٍ وَهُوَ شَاخِبٌ طَوَى الْبَطْنَ مِخْمَاصِ الضُّحَى وَالْأَصَائِلِ^(٥)

★ ★ ★

-
- (١) كالحاة: عابسة. الزعانف: ج الزعنفة، وهو من الرجال القصير. خشعوا: فزعوا.
 (٢) نالوا عدوهم: انتصروا عليه. أصيبوا: هزموا. خور: ضعف.
 (٣) الوعى: الحرب. مكتنع: حاضر. بيشة: موضع تكثر فيه الأسود. الفدع: الاحوجاج.
 (٤) العوراء من القول: الفاحش.
 (٥) الأحدوثة: ما يتحدث به.
 (٦) طوى البطن: ضامره. مخمصاص: من المخمصاة أي الجوع.

قال عمرو بن كميل في مدح عمرو بن ذكوان:

يَسْرُكَ مَظْلُومًا وَيُرْضِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
أَخُو الْجِدِّ إِنْ جَدَّ الرَّجَالُ وَشَمَّرُوا وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شِئْتَ أَلْهَاكَ بَاطِلُهُ

★ ★ ★

وقال أحدهم في مدح آل المهلب:

آلُ الْمُهَلَّبِ قَوْمٌ خُوِّلُوا شَرْقًا مَا نَالَهُ عَرَبِيٌّ لَّا وَلَا كَادًا^(١)
لَوْ قِيلَ لِلْمَجْدِ حَيْدٌ عَنْهُمْ وَخَالِهِمْ بِمَا آخَتَكُمْتَ مِنَ الدُّنْيَا لَمَّا حَادَا^(٢)
إِنَّ الْمَكَارِمَ أَرْوَاحَ يَكُونُ لَهَا آلُ الْمُهَلَّبِ دُونَ النَّاسِ أَجْسَادًا

★ ★ ★

وقال زياد الأعجم في مدح عبد الله بن الحشرج:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّسْدَى فِي قَبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى آبِنِ الْحَشْرَجِ
مَلِكٌ أَغْرَ مُتَوَجِّحٌ ذُو نَائِلٍ لِلْمُعْتَفِينَ يَمِينُهُ لَمْ تَشْنَجِ^(٣)

(١) خُوِّلُوا: ملكوا.

(٢) خَالِهِمْ: تخلّى عنهم.

(٣) النَّائِلُ: العطية. الْمُعْتَفُونَ: المحتاجون. تَشْنَجُ: تنقبض.

يا خَيْرَ مَنْ صَعَدَ الْمَنَابِرَ بِالتَّقَى بَعْدَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْمُتَحَرِّجِ (١)
لَمَّا أَتَيْتُكَ رَاجِعًا لِنَوَالِكُكُمْ أَلْفَيْتُ بَابَ نَوَالِكُكُمْ لَنْ يُرْتَجِحَ (٢)

★ ★ ★

وقال ابن عقيل في مدح بني دارم:

بني دارمِ إنْ يَفْنَ عُمْرِي فَقَدْ مَضَى حَيَاتِي لَكُمْ مِنِّي تَنَاءً مُخْلَدُ
بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ فَأَثْنَيْتُمْ جَاهِدًا وَإِنْ عُدْتُمْ أَثْنَيْتُمْ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

★ ★ ★

وقال محمد بن عبدالله بن مسلم المعروف بابن المولى في مدح
يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والي مصر من قبل أبي جعفر
المنصور:

وَإِذَا تَبَاعُ كَرِيمَةً أَوْ تُشْتَرَى فَيَوَاكُ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي (٣)
وَإِذَا تَوَعَّرَتِ الْمَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا السَّيْلُ إِلَى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ (٤)
وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَمْتَهَا يَبْدِيئِينَ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدَّرِ (٥)
وَإِذَا هَمَمْتَ لِمُعْتَفِيكَ بِنَائِلِ قَالَ النَّدَى فَأَطَعْتَهُ لَكَ أَكْثَرِ
يَا وَاحِدَ الْعُرْبِ الَّذِي مَا إِنْ لَهُمْ مِنْ مَذْهَبٍ عَنْهُ وَلَا مِنْ مُقْصِرِ

★ ★ ★

(١) المتحرج: المجانب للإثم.

(٢) النوال: العطاء. يرتج: يخلق.

(٣) الكريمة: الفعل الحميد.

(٤) المسالك: الطرق، توعرت: صارت وعرة. نذاك: عطاؤك وكرمك.

(٥) الصنيعة: هنا الفعل الحميد. المكدر: فيه منة.

وقال مروان بن أبي حفصة في مدح بني مطر:

هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانَمَا لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِ كَيْنِ مَنْزِلُ^(١)
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا^(٢)
بِهَالِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوْلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلُ^(٣)
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

★ ★ ★

وقال أيضاً:

تَجَنَّبَ «لَا» فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَانَتْهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلُ «لَا» حِينَ يُسْأَلُ
تَشَابَهُ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَشَاكِلَا فَلَا نَحْنُ نَذْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيُّومُ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمٌ بِأَسِيهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَعْرُ مُحَجَّلُ^(٤)

★ ★ ★

وقال أبو تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ السَّوَاهِي أُتَيْتُهُ فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
كَرِيمٌ إِذَا مَا جِئْتَ لِلْعَرَفِ طَالِبًا حَبَاكَ بِمَا تَحْوِي عَلَيْهِ أَنْسَامُهُ
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُسَهُ

★ ★ ★

(١) السماكان: نجمان وهما الرامح والأعزل.

(٢) النائبات: المصائب.

(٣) البهاليل: ج البهلول وهو السيد.

(٤) الغمر: معظم الماء.

ملحق ،

فصول من كتاب « اللطائف والظرائف »
للشعالبي في مدح بعض الصفات المعنوية

باب مدح العقل

قال الله تعالى في شأن تعظيم العقل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، وقال جل ذكره: ﴿اتَّقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، وقال عز اسمه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٣). وقال النبي ﷺ: «الناس يعملون الخيرات، وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم»، وقيل له عليه الصلاة والسلام في الرجل الحسن العقل الكثير الذنوب، فقال: «ما من آدمي إلا وله خطايا وذنوب، فمن كانت سجيته العقل لم تضره ذنوبه، لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة تمحو ذنوبه وتدخله الجنة».

وقال سعيد بن المسيب في قوله عز وجل: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَقْلٍ مِّنْكُمْ﴾^(٤) يعني ذوي عقل.

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) آل عمران: ١٣ والنور: ٤٤. وقد وهم في المطبوعة فوضع الألباب بدل الأبصار. أما إذا أراد الألباب فالآية هي: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يوسف: ١١١.

(٤) الطلاق: ٢.

وقال مجاهد في قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(١) أي عقل.

وقال الضحاك في قوله جل ثناؤه: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾^(٢). أي عاقلاً.

وقال الحسن: العقل هو الذي يهدي إلى الجنة ويحمي عن النار لقوله عز وجل حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٣).

★ ★ ★

باب مدح الأدب

قال بزرجمهر: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته الأدب، وأي شيء فات من أدرك الأدب. وقال ابن عائشة القرشي: أهل الأدب هم الأكثرون وإن قلوا، ومحل الأنس أين حلوا. وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بني، الأدب بهاء الملوك ورياش السوق، والناس بين هاتين، فتعلمه تجده حيث تحب. وقيل: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة. وقلت في الكتاب المبهج: حلية الأدب لا تخفى وحرمة لا تُجفى.

وقال البريدي:

ليس الفتى كسلّ الفتى إلا الفتى فسي أدبه
وبعض أخلاق الفتى أولى به من نسيبه

وقال بعض الظاهرية: لو علم الجاهلون ما الأدب، لأيقنوا أنه هو الطرب.

(١) ق: ٣٧.

(٢) يس: ٧٠.

(٣) عيون الأخبار ٣: ٢٨٠.

وقال حكيم لابنه: يا بني، عز السلطان يوم لك ويوم عليك، وعز المال وشيك ذهابه، جذير انقطاعه وانقلابه، وعز الحسب إلى خمول ودثور وذبول، وعز الأدب راتب واصب لا يزول بزوال المال، ولا يتحول بتحول السلطان. ويُقال: من قعد به حسبه، نهض به أدبه. وقال ابن المعتز: لست تعدم من الأديب كرمًا من طبعه، أو تكرمًا من أدبه، وقال أيضًا: الأدب صورة العقل، فحسن عقلك كيف شئت.

★ ★ ★

باب مدح الشعر والشعراء

كان يُقال: الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها وكنز أدبها. ويُقال: الشعر لسان الزمان، والشعراء للكلام أمراء. وقال بعض السلف: الشعر أدنى مروءة السرى، وأسرى مروءة الدنى. وقال آخر: الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس، وتستحجج به الحوائج، وتشفى به السخائم. ويُقال: المدح مهزة الكرام وإعطاء الشاعر من بر الوالدين. وقال بعضهم: أنصيف الشعراء، فإن ظلامتهم تبقى، وعقابهم لا يفنى، وهم الحاكمون على الحكام. وقال آخر: الشعر الجيد هو السحر الحلال، والعذب الزلال.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ. وقال له النبي، عليه الصلاة والسلام: صدقت. ثم قال: وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ. قال النبي، عليه الصلاة والسلام: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

وقال بعضهم: رُبَّ بيتٍ شعريٍّ خيرٌ من بيت تبر. وكان عمر، رضي الله عنه، لا يعرض له أمرٌ إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان يُقال: النثر يتطاير تطاير الشرر، والشعر يبقى بقاء النقش في الحجر. وقال آخر: الشعر صوب العقول، وكلام

الفحول. وقيل لحمزة بن بيض: من أشعر الناس؟ قال: من إذا قال أسرع، وإذا وصف أبداع، وإذا مدح رفع، وإذا هجا وضع.

باب مدح التجارة

قد ذكر الله تعالى التجارة في القرآن حيث قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾^(١). وقال عز اسمه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٢). وقال جل ذكره: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٣).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه»، والكسب في القرآن التجارة. وقال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «تسعة أعشار الرزق في التجارة. وكان صلى الله عليه وسلم برهة من الدهر تاجراً، وشخصاً مسافراً، وباع واشترى حاضراً، ولاشتهار أمره في ذلك قال المشركون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤)، فأخبر جل اسمه أن الأنبياء قبله قد كانت لهم تجارات وصناعات.

(١) النساء: ٢٩.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) المزمّل: ٢٠.

(٤) الفرقان: ٢٠.

وكان عمر، رضي الله تعالى عنه، يقول: ما ميتة بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحلي، أضرب في أرض الله، وابتغي من فضل الله. وكان بعض السلف يقول: الأسواق موائد الله في أرضه، فمن أتاها أصاب منها. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (١). يعني التجارة في الأسواق. وقيل: التجارة إمارة، والأرباح توفيقات.

★ ★ ★

باب مدح القناعة

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (٢). هي القناعة. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، العبد حر إذا قنع، والحر عبد إذا طمع. وكان يُقال: انت العزيز ما التحفت بالقناعة. وقيل: القانع بما قسم الله في حدائق النعيم.

ويقال: أخفض الخفض رضاً المرء بحظّه. وقال بعضهم: من لم يقنع بالقليل، لم يكتفِ بالكثير. ومن فصول ابن المعتز: أعرف الناس بالله من رضي بما قسم له. وقال غيره: من قنع بما لهُ استراح وأراح. وقال أبو العتاهية:

إن كان لا يغنيك ما يكفيكَا فكل ما في الأرض لا يُغنيكَا
وقال أيضاً:

قنع النفس بالكفافِ وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها

★ ★ ★

(١) البقرة: ٢٦٧.

(٢) النحل: ٩٧.

باب مدح الصمت

من حكم لقمان رحمة الله عليه: الصمت حكمة وقليل فاعله. وكان يُقال: الصمت أنفع للناس، والسكون أنفع للطير لأن الطير إذا نَبَشَ قُبْضَ وَحْبَسَ. وقال بعض السلف: الندم على الصمت خيرٌ من الندم على القول. ومن فصول ابن المعتز: من أخافه الكلام أجاره الصمت. وقال أيضاً: الخطأ بالصمت يُخْتَمُ، والخطل بمثله لا يكتَم. وقال آخر:

الصمتُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ صِدْقَ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ
وَالْقَوْلُ يَسْتَدْعِي لِصَا حِيهِ الْمَذْمَةَ وَالْمَسَبَّةِ
فَاتَرَكَ كَلَامًا لَاغِيَا وَلَا يَكُنْ لَكَ فِيهِ رَغْبَةٌ

وقيل: أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك؛ كأنما رُميت عن قوس واحدة، قال كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: إني على رد ما لم أقل أقدرُ مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمتُ بكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبتُ لمن يتكلم بالكلمة، إن رُفعتْ ضرتهُ، وإن لم تُرفعْ ما نفعته.

★ ★ ★

باب مدح الصبر

قال النبي ﷺ: «لم يؤت الناس خيراً من الصبر والمعافاة». وقال أيضاً عليه السلام: «لم نزل نستزيد للصابرين حتى نزلت: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١). وقال عليه السلام: «عليكم بالصبر، فإنه لا إيمان لمن لا

(١) الزمر: ١٠

صبر له». وقال أيضاً: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة،
وصبر على المعصية. شعر:

تَصَبَّرْ وَلَا تُبَدِّ التَّضَعُّضَ لِلْعِيدَا ولو قَطَّعتْ فِي الجِسمِ مِنْكَ البِواتِرُ
سُرورُ الأَعِادي أَنْ تراكَ بِذِلَّةٍ ولكنها تَغْتَمُّ إِذْ أَنْتَ صابِرُ
ولبعضهم:

بَنى اللهُ للأخيارِ بَيْتاً سِماوَةٌ همومٌ وأحزانٌ وحِيطانُهُ الضَّرُّ
وأَدْخَلَهُمْ فِيهِ وَأَغْلَقَ بابَهُ وقال لَهُمْ مِفْتاحَ بابِكُمْ الصَّبْرُ
وكان ينشد:

إِنِّي وَجَدْتُ وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ للصَّبْرِ عاقِبَةٌ مَحمودَةٌ الأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يَحاولُهُ فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِالظَّفَرِ

باب مدح الحلم

كان يُقال: الحلم حجابُ الآفاتِ. وقال حكيم: حلمٌ ساعةٌ يردُّ سبعينَ آفةً.
وقال بعضُ السلف: الحلم أجَلٌ من العقل، لأن الله تعالى وصف نفسه به. وقيل:
حسبُ الحليم أنَّ الناسَ أنصاره على الجاهل، ومن ملك غضبه احترز من عدوه.
وقال الحسن رحمة الله عليه: ما بعث الله نبياً إلى قومٍ إلا بعثه وأمره بالحلم.
وكان الأحنف يقول: ما أضيف شيءٌ إلى شيءٍ أحسن من علمٍ إلى حلم.

كان يقول: من لم يصبر على كلمة واحدة، سمع كلمات.

ومن أحسن ما قيل في الحلم قول الشاعر:

لَنْ يَبْلَغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَسَزُوا لِأَقْوَامٍ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مَشْرُقَةً لَا عَفْوَ ذَلِ وَلَكِنْ عَفْوَ أَحْلَامِ

باب مدح المشورة

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المستشار بالخيار، وإن شاء قال، وإن شاء سكت». وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «المستشار مؤتمن». وقال الحسن البصري: إن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالمشورة، لا من حاجة منه إلى آرائهم، وإنما أراد عز اسمه أن يعلمنا ما في المشورة من الفضيلة، حيث قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١)، يعني أن الإنسان لا يستغني عن مشورة نصيح له، كما أن القوادم من ريش الجناح تستعين بالخوافي منه. قال بشار:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِينْ بِحَزْمِ نَصِيحٍ أَوْ نَصَاحَةِ حَسَازِمِ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَرِيشُ الْخَوَافِي تَابِعٌ لِلْقَوَادِمِ

قال الأصمعي: قلت لبشار: رأيت رجال الرأي يتعجبون من أبياتك في المشورة، فقال: أو ما علمت أن المشاور بين إحدى الحسينين، صواب يفوز بشمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه، فقلت له: أنت والله في هذا الكلام أشعر منك في شعرك. وقال الجاحظ: المشورة لقاح العقول، ورائد الصواب، والمستشير على طرف النجاح، واستنارة المرء برأي أخيه، من عزم الأمور وحزم التدبير، وقد أمر الله تعالى أكمل الخلق لباً، وأولاهم بالإصابة عزماً، فقال لرسوله الكريم عليه السلام في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢).

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

وقال حكيم: إذا شاورتَ العاقل صار عقله لك. ويُقال: أول الحزم المشورة. وقال العتابي: المشورة عين الهداية، وقد خاطرَ من استغنى برأيه.

★ ★ ★

باب مدح التاني

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١) الآية، يعني فتثبتوا، وهو أبين. وقال حكيم: ينبغي للوالي أن يتثبت فيما أنهي إليه، ولا يتعجل، ويتأنى ويتمهل، حتى ينظر ويستكشف الحال، ويأخذ بأدب سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢). وفي الخبر: «التأني من الله والمعجلة من الشيطان». ويُقال: الأناة حصن السلامة، والمعجلة مفتاح الندامة. وقيل: التأني مع الخيبة، خيرٌ من العجلة مع النجاح. وقال آخر: التأني في الأمور أول الحزم، والتسرع إليها عين الجهل. وقال النابغة:

الرَّفْقُ يُعْمِنُ وَالْأَنْسَاءُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي أَمْرِ تَلَاقِ نَجَاحَا

وقال القطامي:

قد يدركُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

★ ★ ★

(١) الحجرات: ٦.

(٢) النمل: ٢٧.

باب مدح الشجاعة

في الخبر: إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية أو عقرب». وكتب أنوشروان إلى وكلائه: عليكم بأهل الشجاعة والسخاء، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى. وكان يُقال: الشجاع موقى، والجبان ملقى. ويقال: الشجاع محب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه، وقال بعض الحكماء: قوة النفس أبلغ من قوة الجسد، وقال الشاعر:

يَفِرُّ الجَبَانُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمَّهِ ويحمي شجاعُ القومِ من لا يناسيهُ
وقال أبو الطيب المتنبّي:

يَسْرَى الجُبْنَاءُ أَنَّ العَجْزَ عَقْلٌ وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي المرءِ تُفْئِي وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الحَكِيمِ

★ ★ ★

باب مدح الجود

في الخبر: «إن الله تبارك وتعالى يحب الجواد لأنه جوادٌ كريم» وفيه أيضاً: «الجود من أخلاق أهل الجنة». ويُقال: الجودُ غايةُ الزهدِ، والزهدُ غايةُ الجودِ. وقال غيره: الجود أن تكون بمالك متبرعاً، ومن مال غيرك متورعاً.

وقال علي بن عبدالله: الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وكان خالد بن عبدالله القسري يقول: تنافسوا في المغانم وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمداً ولا تكتسبوا بالمال ذمّاً، ولا تعدوا بمعروف لم تجعلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم، فلا تملوها فتعود نقماً. وقال الشاعر:

لا تَزْهَدَنَّ فِي اصْطِنَاعِ العُرْفِ تَفْعَلُهُ إِنَّ الذي يَحْرُمُ المَعْرُوفَ مَحْرُومٌ

فهرس المحتويات

	الصفحة
مقدمة	٥
القسم الأول: المديح وتطوره في الأدب العربي	٧
الفصل الأول: المديح وعوامل نشأته .	٩
١ - التعريف بالمديح	٩
٢ - المديح في الأدب العربي	١٠
٣ - عوامل نشأة شعر المديح	١١
الفصل الثاني: تطور المديح في الأدب العربي خلال العصور .	١٣
١ - في الجاهلية	١٣
٢ - في صدر الإسلام	١٤
٣ - في العهد الأموي	١٥
٤ - في العهد العباسي	١٦
٥ - بعد العهد العباسي	١٧
القسم الثاني: أنواع المديح بحسب الممدوحين	١٩
الفصل الرابع: المديح الديني	٢٣
١ - مدح الله عزّ جلاله	٢٣
٢ - المديح النبوي	٢٤
٣ - مديح آل البيت	٢٥
حسان بن ثابت في مدح النبي (ﷺ) ..	٢٨
كعب بن زهير في مدح النبي (ﷺ) ..	٣١
بانة سعاد	٣١
أحمد شوقي في المديح النبوي	٣٤
الهمزية النبوية	٣٤
ذكرى المولد	٤٤
الفصل الأول: مديح الملوك والخلفاء	٥٠
الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان .	٥٣
جرير في مدح عبد الملك بن مروان	٥٦
أبو نواس في مدح هارون الرشيد	٥٨
أبو تمام في مدح المعتصم	٦٢
أبو تمام في مدح المعتضد بالله	٦٥
علي بن الجهم في مدح المتوكل	

أمين نخلة في مدح بشارة الخوري ١٠٦

الفصل الخامس : مدح الأوطان

والبلدان ١٠٩

١ - مدح الأوطان ١٠٩

٢ - مدح البلدان ١١١

القسم الثالث : متفرقات مدحية ١٢٣

ملحق : فصول من كتاب « اللطائف

والظرائف » للثعالبي في مدح

بعض الصفات المعنوية ١٤٧

باب مدح العقل ١٤٩

باب مدح الأدب ١٥٠

باب مدح الشعر والشعراء ١٥١

باب مدح التجارة ١٥٢

باب مدح القناعة ١٥٣

باب مدح الصمت ١٥٤

باب مدح الصبر ١٥٤

باب مدح الحلم ١٥٥

باب مدح المشورة ١٥٦

باب مدح التأني ١٥٧

باب مدح الشجاعة ١٥٨

باب مدح الجود ١٥٨

العباسي ٦٦

البحثري في مدح المتوكل على الله ٦٧

حافظ إبراهيم في مدح عمر بن

الخطاب ٦٩

صفي الدين الحلبي في مدح الملك

الناصر ٧٧

ابن عمار في مدح المعتضد بالله ٨١

الفصل الثاني : مدح الأمراء

والوزراء والوجهاء ٨٣

الفرزدق في مدح زين العابدين ٨٦

المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني . ٨٩

أبو تمام في مدح الحسن بن سهل ٩٢

ابن خفاجة الأندلسي في مدح الأمير

أبي يحيى بن إبراهيم ٩٣

ابن الأزرق الأندلسي في مدح الرئيس

أبي يحيى بن عاصم وتهنئته ٩٥

الشيخ ناصيف اليازجي في مدح

أسعد باشا ٩٧

الشيخ إبراهيم اليازجي في مدح

صبحي باشا ٩٩

الشيخ خليل اليازجي في مدح

الخدوي توفيق ١٠١

الفصل الثالث : مدح العلماء

والأدباء ١٠٣

To: www.al-mostafa.com